المبحث الرابع:

مكانة العلماء والفقهاء عند صلاح الدين الأيوبي

استوعب صلاح الدين الأيوبي أن من أسباب تحقيق الانتصار ضد المد الشيعي الباطني والغزو الصليبي وجود القيادة الربانية، فهي التي تستطيع أن تنتقل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة وكان على قناعة تامة بأهمية وجود العلماء الربانيين على رأس القيادة الربانية، فهم قلب القيادة الربانية وعقلها المفكر، فصلاح الدين الأيوبي يعرف أن تحرير البلدان وتوحيدها ليس عملاً سياسياً أو عسكريا، فحسب، بل أنه أوسع بذلك بكثير إنه مواجهة المذهب الشيعي الرافضي الباطني والذي كان خطر داخلياً يهدد عقيدة الأمة وسلامة دينها والصراع الحضاري مع الغرب الأوروبي النصراني وإنه بدون تأصيل "الذات العقائدية" للأمة المسلمة فلن تكون انتصاراتهم على الخصم سوى أعمالاً جزئية موقوتة معرضة دوماً للمد والجزر وللتغيير والتبّدل كما يحدث دائماً وما يقتضيه "الموقف" هذا، ليس مجرد انتصار خارجي في معركة أو استرداد حصن، إنما بناء أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي وتحفظ حدود شخصيتها الحضارية من أن تتفتت وتضيع، وحينذاك سوف يتحول كل عنصر عسكري أو كسب سياسي إلى إنجاز بنائي يزيد المجتمع المقاتل قوة وأصالة وتماسكاً لا مجرد تكديس شيء لا بشده الرباط تكديس كمي يثبت للضربة والضربتين، ولكنه في الثالثة أو الرابعة ينهار - فتذهب مع انهياره هدراً جهود السنين الطوال وعرفها [1].

فالنشاط العلمي وفي عهد صلاح الدين والاهتمام بالعلماء في حقيقته امتداد طبيعي لعهد نور الدين محمود، ولم يكن النشاط العلمي أبداً ترفاً فكرياً، لا إفرازاً تقليداً لأجهزة الدولة ولكنه تصميم هادف يسعى إلى عملية التأصيل العقائدي، وقد كان الأيوبيون يهتمون بالعلماء وأسهموا في حركة التمكين للمذهب السني، فقد كان صلاح الدين الأيوبي قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم، وأكابر الفقهاء، وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه، بحيث إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً وإن لم يكن بعبارة الفقهاء [2] وكان يحرص على أن يختلي ببضع المقربين إليه من

(1) عصر الدولة الزنكية للصَّلاَّبي، ص 249 نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 249.
(2) سيرة صلاح الدين لابن شداد ص 256.

العلماء فيقرأ عليه شيئاً من الحديث أو الفقه، ويشارك الفقهاء في مجلس القضاء [1]، وقد مر بنا في مناسبات عدة حرصه على سماع الحديث الشريف، وسعيه إلى كبار المحدثين ليأخذ عنهم وحرص صلاح الدين على أن يشب أبناؤه على احترام العلم والعلماء، فكان يصطحبهم معه إلى مجالس العلم، ويأخذهم بدراسة بعض الكتب الدينية، فنشأوا محبين للعلم مكرمين لأهله [2]، وقد احتفظ صلاح الدين بعلماء العهد الزنكي وأكرمهم وتعاون معهم وكان الوزراء والأمراء في دولته من كبار العلماء ومن أشهرهم وزيره وكاتبه ومستشاره القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي الذي قال صلاح الدين عنه: لم أفتح البلاد بسيفي وإنما برأي القاضي الفاضل. ولقد كان القاضي الفاضل يجمع إلى حنكته السياسية ورعاً فائقاً، فكان كثير الصيام والصلاة وقراءة القرآن. وكان متواضعاً يكثر عيادة المرضى والإحسان للفقراء [3] وإليك ترجمة أهم العلماء ودورهم السياسي والعلمي والجهادي والتربوي في عهد صلاح الدين:

أولاً: القاضي الفاضل:

الإمام العلاّمة البليغ، القاضي الفاضل، محي الدين، يمين المملكة، سيد الفُصَحَاء، أبو علي عبدالرحيم بن علي بن الحسن العسقلاني، صاحب ديوان الإنشاء الصلاحيّ، ولد في الكهولة من أبي الطاهر السّلفيّ، وأبي محمد العثماني، وأبي القاسم بن عساكر، وأبي الطاهر بن عوف، وعثمان بن فرج العبدري [4].. انتهت إلى القاضي الفاضل براعة الترسُّل وبلاغة الإنشاء، وله في ذلك الفَنّ اليُد البيضاء، والمعاني المبتكرة، والباع الأطول، لا يُدْرَكُ شأوه، ولا يُشَقُّ غُبَارُهُ، مع الكثرة [5]. أخذ الصنعة عن الموفَّق يوسف بن الخلاّل صاحب الإنشاء للعاضد، ثم خدم بالثغر مدة، ثم طلبهُ ولد الصالح بن رُزّيْك واستخدمه في ديوان الإنشاء [6] قال العماد: قضى سعيداً، ولم يُبق عملاً صالحاً إلا قَدمه، ولا عهداً في الجنة إلا أحكمه، ولا عقد برٍّ إلا أبرمه، فإن ضائعه في الرقاب وأوقافه متجاوزة الحساب، لاسيما أوقافه لفكاك الأسرى وأعان المالكية والشافعية بالمدرسة، والأيتام بالكتّاب، كان للحقوق قاضياً، وفي الحقائق ماضياً، والسلطان له

(1) سيرة صلاح الدين ص 13، 28.
(2) التاريخ السياسي والفكري ص 256.
(3) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 262.
(4) سير أعلام النبلاء (339/21).
(5) المصدر نفسه (339/21).
(6) المصدر نفسه (21، 339).

مطيع، ما افتتح الأقاليم إلاَّ بأقاليد آرائه ومقاليد غِناه وغنائه، وكنت من حسناته محسوباً، وإلى آلائه منسوباً، وكانت كتابتُهُ كتائب النَّصر، وبراعاته رائعة الدهر، وبراعته بارية للبّر، وعبارته نافثة في عُقِدَ السحر، وبلاغته للدولة مُحَمَّلةً وللمملكة مُكَمَّلة، وللعصر الصلاحيَ على سائر الأعصار مُفَضلة، نسخ أساليب القدماء بما أقدمه من الأساليب، وأعربه من الإبداع، ما ألفيته كرّر دعاء في مكاتبة، ولاردَّد لفظاً في مخاطبة [1] وقال عنه في كتابه الخريدة. وقبل شروعي في أعيان مصر أُقدِّم ذكر من جميع أفاضل العصر كالقطرة في بحره المولى القاضي الفاضل، إلى أن قال: فهو كالشريعة المحمدية نسخت الشَّرائِعَ، يخترع الأفكار، ويفترع الأبكار، هو ضابط الملك بآرائه، ورابط السِّلك بآلائه إن شاء، أنشأ في يوم ما لو دوّن لكان لأهل الصناعة خير بضاعة، أين قُسُّ من فصاحته، وقيس في حصافته ومن حاتم وعمرو في سماحته وحماسته[2]، لا منَّ في فعله، ولا مَيْنَ في قوله، ذو الوفاء والمروءة والصفاء والفتوة، وهو من الأولياء خُصُّوا بالكرامة، لا يفتر مع ما يتولاه من نوافل صَلاته ونوافل، صِلاته [3]. وقال عنه الحافظ المنذري: ركن إليه السلطان ركوناً تاما، وتقدم عنده كثيراً، وكان كثير البِّر، وله آثار جميلة [4].

وقال الموفق عبد اللطيف: القاضي الفاضل كان ذا غرام بالكتابة وبالكتب أيضاً، له الدين، والعفاف والتُّقى، مواظب على أوراد الليل والصيام والتلاوة، بما تملك أسد الدين أحضره، فأعجب به، ثم استخلصه صلاح الدين لنفسه، وكان قليل اللذات، كثير الحسنات، دائم التهجُّد، يشتغل بالتفسير والأدب، وكان قليل النحو، لكنه له دُربة قوية، كتب من الإنشاء مالم يكتبه أحد، أعرف عند ابن سناء الملك من إنشائه اثنين وعشرين مجلداً، وعند ابن القطّان عشرين مجلداً، وكان مُتَقَلِّلاً في مَطْعَمه ومَنْكِحِه وملبسه، لباسه البياض، ويركب معه غلام وركابيٌّ، ولا يمُكِّنُ أحداً أن يصحبه، ويكثر تشيع الجنائز، وعيادة المرضى، وله معروف في السِّرّ والعلانية، ضعيف البنية، رقيق الصورة، له حَدْبَةٌ يغطيَّها الطيلسان، وكان فيه سوء خلق يُكْمِد به نفسَهُ ولا يضُّر أحداً به، ولأصحاب العلم عنده نفاق، يُحسنُ إليهم، ولم يكن له انتقام من أعدائه إلا بالإحسان أو الإعراض عنهم، وكان دخله ومعلومه في العام نحواً من خمسين ألف دينار سوى متاجر الهند

---

(1) سير أعلام النبلاء (340/21).
(2) المصدر نفسه (342/21).
(3) المصدر نفسه (342/21).
(4) المصدر نفسه (342/21).

والمغرب [1]، توفّي مسكوتا [2]، أحوج ما كان إلى الموت عند توليّ الإقبال، وإقبال الإدبار، وهذا يدل على أن لله به عناية [3] وقال عنه أبو شامة.. كان ذا رأي سديد وعقل رشيد، معظماً عند السلطان صلاح الدين، يأخذ برأيه ويستشيره في الملمات، والسلطان له مطيع وما فتح السلطان الأقاليم إلا بأقاليد آرائه، وكانت كتابته كتائب النصر [4] وقد تولى القاضي الفاضل وساهم في أعمال كثيرة في عهد صلاح الدين والتي منها.

1 - رئاسة ديوان الإنشاء:

عندما كان صلاح الدين وزيراً للدولة الفاطمية في مصر كان يعتبر بمنزلة السلطان ويُلقَّبَ بلقبه، بينما كان القاضي الفاضل رئيساً لديوان الإنشاء ويعتبر بمثابة وزيره [5]، ظل القاضي الفاضل يعمل في ديوان الإنشاء رئيساً له مع أنه حافظ على لقب نائب رئيس ديوان الإنشاء احتراماً لأستاذه وراعيه ورئيسه الشيخ الموفق أبي الحجّاج يوسف بن الخلال. ولم يُشعِر ابن الخلال يوما بأنه حل محلّه، مع أن ابن الخلال ربما رغب في ذلك لتقديره للقاضي الفاضل وتعلقه به، وتطلّعه إلى الاستمرارية في الأسلوب والآراء. ولم يخب ظنه في تلميذه الذي عامله في أواخر سني حياته معاملة الابن البارّ للوالد [6].

وكانت رئاسة ديوان الإنشاء أقصى ما تمّناه القاضي الفاضل من مناصب، فبعد صراع دام واحداً وعشرين عاماً في مصر تعرّض خلالها لشتى أنواع المعاناة، توصّل إلى المنصب الذي كان بعض الكتّاب المصريين يحاول الحيلولة دونه. وقد أصبح بعدما تولى المنصب يلقب بالسيد الأجل وبالشيخ الأجل، كاتب الدّست الشريف، وصاحب ديوان الإنشاء [7] وغلب عليه لقب القاضي الفاضل، الذي أصبح يعرف به أكثر من اسمه الأصلي عبد الرحيم البيساني العسقلاني، الذي يشير إلى موطنه ومسقط رأسه، ولا سيّما في الكتابات عنه، وهو وإن تقبّل اللقب شكليا ورسميا، فقد تبنّى الصراع المستمّد من موطنه ومسقط رأسه، وتولى القاضي الفاضل ديوان الإنشاء في مصر، وعلى الرغم من وجود كتّاب أكبر منه سناً قابلهم عند أول دخوله الديوان تلميذاً، وتدّرب على يد بعضهم، مثل القاضي الأثير بن بيان، وعاصرهم، ثم عمل معهم وهو يقفز في ترقّعه

---

(1) سير أعلام النبلاء (343/21).
(2) يُعني: فجاءة، وهو ما يعرف في عصرنا بالسكتة القلبية.
(3) سير أعلام النبلاء (343/21).
(4) كتاب الروضتين (241/2).
(5) القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني ص 124.
(6) القاضي الفاضل ص 125.
(7) المصدر نفسه ص 125.

وهم ثابتون في أماكنهم وهو ما أثار حفيظة بعضهم، وواضح أن شخصية القاضي الفاضل الجيّاشة وقدرته على التكيّف، وذكاءه الحادّ، وحدسه الشديد في معرفة مواطن القوة والضعف في القادة، من العوامل التي أدّت إلى اتقائه السريع، ولكنّ أسلوبه الفني فسح أمامه مجالات وآفاقاً، وهذا يدلّ على أهمية الأدب في السياسة، وعلى تقدير رجالات الدولة في ذلك العصر للأدب والأدباء، ورعايتهم لذوي المواهب منهم [1] وحالما تولّى القاضي الفاضل رئاسة ديوان الإنشاء، راح يعمل مع صلاح الدين على الإعداد المتدرج للقضاء على الدولة الفاطمية، وكانت أولى الخطوات في هذا الاتجاه إعداد جيش أيوبي ينفّذ به مخطّط الانقلاب [2].

2 - القاضي الفاضل وجيش صلاح الدين:

أخذ صلاح الدين يعمل حال توليّه الوزارة على إعداد جيش أيوبي ليكون نواة لجيش مصري جديد يدافع به عن مصر من الغزو الإفرنجي ولم يْخفَ عليه تدهور وضع الجيش الفاطمي لأنه خبره في أثناء رحلاته الثلاث إلى مصر بين سنة 559هـ وسنة 564هـ وعرفه معرفة جيدة من حيث مصادرة البشرية والمالية والحربية ومن حيث تنظيمه وفرقه المبنية على أساس عرقي، مثل السودان والأرمن والمصريين والديلم والأتراك والعربان، وكان يعرف بالتفصيل وضع كل فرقة من هذه الفِرقَ [3].

وكان القاضي الفاضل قد عمل في إدارة هذه القوات في عهد رزّيك بن الصالح وساهم معها في بعض وقائعها الحربية خلال الحملة الفرنجية الشامية الثانية على مصر، وشاهد قادة الفرق المختلفة من هذه القوات وهم يتنافسون في شأن السلطة الأمر الذي أنهك القوات وأضعف مصر إلى حد أصبحت تعجز معه عن الدفاع عن استقلالها، أو حتى عن بقائها، وعرف القاضي الفاضل الكثير عن القوات المصرية عن طريق عمله معها في ديوان الجيش وفي ديوان الإنشاء الذي كان يتعامل مع ديوان الجيش ويشرف على العيون والرسل؛ فألّم بهذا القوات، وعرف دخائلها واطّلع على كل فِرقة منها، وعلى كل قائد من قوادها، ولم يضنّ بمعلوماتهَ عنها على صلاح الدين، بل وجّهه في تنظيم جيشه الأيوبي وإدارته وظل طوال مدة عمله مع صلاح الدين يشرف على عساكره، يراقب إعدادها وتنظيمها ومواردها المالية، يصحبها من مصر إلى الشام لتحارب مع صلاح الدين، ومن الشام إلى مصر لتستعّد وتتجّهز لحملات مقبلة ضد

(1) المصدر نفسه ص 125.
(2) المصدر نفسه ص 126.
(3) القاضي الفاضل ص 126.

الفرنج [1] ومع أن القاضي الفاضل كان رئيساً لديوان الإنشاء ووزيراً لدولة صلاح الدين، إلا إنه كان يلّم بكل صغيرة وكبيرة في الجيش بحكم علاقة ديوان الإنشاء بديوان الجيش وكان يساهم في إعداد الخُطط الحربية، ويُشرف على تمويل الجيش والأسطول وتزويدهما، وتجهيزهما للجهاد، وقد واظب على هذه المسؤوليات طوال مدة عمله مع صلاح الدين[2].

3 - القاضي الفاضل والقضاء على المعارضة الفاطمية:

استمد القاضي الفاضل أسس تحّركاته السياسية في بداية وزارة صلاح الدين، من خبرته في القصور الفاطمية، وضمن الجيوش، ومع الوزراء والمديرين. وأدرك أن هذه المؤسسات وما تضّمه من شخصيات وَكْرٌ للمؤامرات التي لا تنتهي، ومعينٌ للدسائس التي لا تنضب، وقد تعامل معها جميعاً وشاهدها من قبل، وأيقن أيضاً أنها لن تتوانى عن الاستنجاد بالفرنج على الرغم من كل ما مّر بها وبالشعب المصري من مصائب ومِحَن، في سبيل الحفاظ على نفوذها، ولا سيّما إذا رأت في سلطة صلاح الدين، أو في سلطة الأيوبيين عامّة، خطراً عليها، ومن ثَمَّ فإنه أخذ، حالماً خّوله صلاح الدين ما خوّله من مسؤوليات مطلقة في الإدارة يبثّ عيونه ضمن هذه المؤسسات والمجموعات والأفراد الذين عرفهم وخاف شّرهم. وأمّا المؤسسات والمجموعات هذه فقد أخذت تخطّط بدورها للقضاء على حكم صلاح الدين، وقد تزعّم مؤتمن الخلافة تلك المجموعات وبدأ تحّركاته مُذ تولّى صلاح الدين.

وقد كان اكتشاف المؤامرة من مسؤوليات ديوان الإنشاء، وبالذات القاضي الفاضل الذي ظل يراقب كتّاب ديوان الإنشاء، والمسرّحين منهم بصورة خاصة، وقد ساهمت جهود القاضي الفاضل في كشف مؤامرة مؤتمن الخلافة وتمَّ القضاء على شوكته وفلّ صلاح الدين شوكة الأرمن، وهم الفرقة التالية للسودان قوة وعدداً، فأحرق داراً للأرمن بين القصرين وفيها عدد كبير من الجنود الأرمن، معظمهم من الرماة ولهم رواتب من الحكومة، وكان هؤلاء قد حاولوا أن يعرقلوا حركة قوات صلاح الدين في أثناء المعركة مع السودان برميهم بالنشَّاب فلقوا جزاءهم، وأما من تبقى منهم فنفاهم صلاح الدين إلى الصعيد [3].

ولقد تّم إضعاف شوكة الفاطميين، بل كسرها، خلال أشهر خلال الأشهر الخمسة

(1) المصدر نفسه ص 127.
(2) المصدر نفسه ص 129.
(3) القاضي الفاضل ص 130 إلى 133.

الأولى من وزارة صلاح الدين، ثم تلاها عامان ثم خلالهما تغيير النظام الإداري المصري وتحويله إلى نظام أيّوبي جديد سنّي، ولقد ساهم القاضي الفاضل في هذا التغيير الذي مهّد لحكم صلاح الدين المطلق في مصر، وتوليته هو - القاضي الفاضل - وزارة صلاح الدين، والقضاء على الخلافة الفاطمية [1].

4 - إعادة التنظيم الإداري في مصر:

شرع القاضي الفاضل في تنفيذ مخطّط قلب نظام الحكم الفاطمي بالتخلصّ من أصحاب الدواوين والكتّاب الموالين للفاطميين، وكان بحكم عمله في الدواوين على علم برجالات الدولة وأصحاب دواوينها وكتّابها، وبولاءاتهم السياسية وميولهم المذهبية، ولقد صاحب بعضاً منهم وعادى أو نافس بعضاً آخر، وقد واتته الفرصة للتخلص ممّن يستطيع التخلصّ منه ففعل، وتخلص من عدد كبير من الكتّاب الشيعة الإسماعيلية والمسيحيين واليهود وغيرهم خوفاً من أن يتآمروا مع الفلول الفاطمية، أو أن يتّصلوا بالفرنج باسم الدواوين التي يعملون فيها. ولقد أشار إلى خطر هؤلاء الكتّاب في أكثر من رسالة رسمية إلى الخليفة العباسي وإلى نور الدين. ففي إحدى رسائله عن صلاح الدين إلى الخليفة المستضيء (570هـ/1174 - 1175م) يصف أحوال مصر في ظل الفاطميين بقوله: ولهم - للفاطميين - حواشٍ لقصورهم من بين داع تتلطف في الضلال مداخله وتصيب القلوب مخالته، ومن بين كتّاب تفعل أقلامهم أفعال الأسل. ولقد ثبت صدق ظنّه فيما بعد عندما راح هؤلاء يدبُرون مؤامرة لإحباط حكم صلاح الدين. وكما أنه سّرح الكتّاب والإداريين الذين شك في ولائهم فإنه أبقى الإداريين الذين ضمن ولاءهم، والذين كان بحاجة إلى إدارتهم ومعلوماتهم ومساعدتهم في تطبيبق مخطط الانقلاب، وكان في مقدم هؤلاء الخطير بن مماتي رئيس ديوان الجيش وأحد أصدقاء القاضي الفاضل، فقد خدم ابن مماتي في ديوان الجيش في عهد شاور، ودخل المذهب السنّي على يد أسد الدين شيركوه، وظل قريباً من القاضي الفاضل محبّبا إليه حتى وفاته سنة 578هـ [2]، وعين بعده ابنه الأسعد بن مماتي في الديوان، ولقد أخلص الأسعد كوالده للقاضي الفاضل الذي كان يعتمد على إدارته وولائه في أثناء غيابه عن مصر ورعى القاضي الفاضل أيضاً الأثير بن بيان، صاحب ديوان النظر، وأبقاه في منصبه وهو سني أيضاً، وابن بيان هذا أكبر من القاضي الفاضل سنّاً، وكان يعمل في ديوان الإنشاء عندما دخله القاضي الفاضل طلباً للعلم فيه، ودافع عنه عندما عاد من الإسكندرية إلى القاهرة، وظلّ

(1) القاضي الفاضل ص 134.

(2) النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ص 80 - 93.

القاضي الفاضل يعمل مع ابن بيان ويعتمد عليه حين تقدم ابن بيان في السنّ وعجز عن العمل، فقرّر لـه القاضي الفاضل معاشاً يستعين به [1]، وأبقى أبا الحسن المخزومي، وهو سنّي، ناظراً لديوان المجلس، بينما أمسك هو برئاسة ديوان الإنشاء بالإضافة إلى الإدارة العامة كوزير، وشرع القاضي في توجيه هذه الدواوين بمساعدتهم إلى خدمة أهداف صلاح الدين ودولته[2] ومشروعه الإسلامي الكبير.

5 - القاضي الفاضل والإحياء السني في مصر:

كانت الإسكندرية مركزاً للإحياء السني في مصر، وقد تمّ ذلك على يد علماء قصدوها من المغرب مثل أبي بكر الطرطوشي، ومن المشرق مثل السلفي، وأسسوا فيها مدارس كان لها أثر كبير في الإحياء السني وفي حركة الجهاد ضد الفرنج وهذا يفسر مساندة أهالي الإسكندرية لأسد الدين - وصلاح الدين - وأمّا القاهرة فلم تحظ كالإسكندرية بمدارس وفقهاء للسنّة، ولكن الوضع تغير مع ظهور صلاح الدين على المسرح السياسي. فمع أن نور الدين وأسد الدين كان قد استفاد من بعض أهل السنة قبل وزارة صلاح الدين للحصول على مؤازرة شعبية لحركتهما داخل مصر، فإن هذه العناصر وحدها لم تكن كافية، وكان هناك حاجة إلى ثورة ثقافية في مصر يتم من خلالها إعادة مصر إلى المذهب السني بالتدريج، وقد بدأ صلاح الدين إصلاحاته في مصر، وحتى قبل القضاء النهائي على الفاطميين بتأسيس عدد من المدارس على المذاهب الأربعة بني أولها للمذهب الشافعي على أنقاض حبس المعونة، السجن الذي ضم الكثير من قادة مصر سنة 566هـ/1170 - 1171م ولعلها أصبحت أول مدرسة من نوعها في مصر، كما أنشأ سنة 566هـ/1170م مدرسة للمالكية في جوار جامع عمرو بن العاص عُرفت بالقمحية، وأسس تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ابن أخي صلاح الدين، مدرسة للشافعية أوقف عليها عدة أماكن [3].

كانت هذه المدارس بداية حركة بنائية سنية ساهم فيها كثيرون من الأيوبيين وأمرائهم خلال حكم صلاح الدين في مصر فيما بعد، كما ساهم فيها القاضي الفاضل بمدرسة من أغنى هذه المدارس، إذ رصد فيها قسماً كبيراً من خزانة كتب الفاطميين وإن تكن فكرة إنشاء المدارس السنية مستوردة من الشام على غرار ما فعله نور الدين فيها من إنشاء مدارس شبيهة بمناهجها وموضوعات تدريسها في المدرسة النظامية

(1) القاضي الفاضل ص 135.
(2) المصدر نفسه ص 135.
(3) الخطط (364/2).

ببغداد، فإن تمويل هذه المدارس واختيار المدرسين فيها كان ضمن مسؤوليات القاضي الفاضل، فمن ضمن إصلاحاته الإدارية في فترة وزارة صلاح الدين فصلُ ديوان الأحباس الفاطمي الذي كان يشرف على إدارة المؤسسات الدينية وتمويلها وتزويدها عن ديوان الأموال، وجعله ديوانا مستقلاً تحت إدارة الوزير مباشرة، أي صلاح الدين، قبل القضاء على الفاطميين وتحت إدارته هو بعد القضاء عليهم، ومن ثم فقد كان المسؤول الأكبر عن إدارة هذه المؤسسات المهمة، وعن اختيار المدّرسين فيها وقراء القرآن والحديث والوّعاظ والأئمة [1]، وكان هؤلاء جميعاً من وسائط التغيير وكان من المعروف أن صلاح الدين كان يعتمد على خبرة القاضي الفاضل في اختيار هؤلاء وهو في مصر، وظل على ذلك عندما انتقل إلى الشام، إذ كان يستشيره في الناحيتين التربوية والدينية وبعد أن هيّأ صلاح الدين المصريين للانقلاب وقلّم أظفار المؤسسة الفاطمية، كما ذكرنا، بدأ بالإعداد للقضاء نهائياً على شعائر الخلافة الفاطمية - ففي سنة 565هـ/1169م أبطل الأذان "بحي على خير العمل محمد وعلي خير البشر" ويعلق المقريزي بأن هذه أول وصمة دخلت على الدولة [2].

- تم أمر بعد ذلك في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة 565هـ/1169 - 1170م، بأن يذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان ثم علي [3].
- وأمر بعد ذلك بأن يُذكر العاضد في الخطبة بكلام يحتمل التلبيس على الشيعة فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العاضد لدينك [4].
- وولىّ القضاء في القاهرة للفقيه عيسى الهكاري، وهو كردي من أقرب المقّربين إلى صلاح الدين وقد فعل هذا كبداية لتحويل الولاء في القاهرة التي كان أغلب أهلها من الإسماعيلية [5].
- كما عزل قضاة مصر من الشيعة، واستولى بعدها على ممتلكات العاضد وعلى القصور وسلّمها إلى الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي، فتحكم في مصر وصار يراقب كل صغيرة وكبيرة فيه، حتى أصبح الخليفة العاضد كالمعتقل في قصره [6].

---

(1) القاضي الفاضل ص 136.
(2) اتعاظ الحنفاء (317/3).
(3) اتعاظ الحنفاء (317/3).
(4) المصدر نفسه (318/3.
(5) القاضي الفاضل ص 137.
(6) اتعاظ الحنفاء (325/3، 326).

- وفي بداية سنة 567هـ، 1171 - 1172م قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين وكان قطعها بالتدريج أيضاً، ففي الجمعة الأولى في محرم 567هـ/1171 - 1172م حذف اسم العاضد من الخطبة، وفي الخطبة الثانية خُطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله. وقطعت الخطبة الفاطمية [1]. وقد توفي العاضد في العاشر من محرم 567هـ/1171 - 1172م [2]. وقد اختلفت هذه العاشوراء عما تعود المصريون عليه من أشراف الدولة الفاطمية على البدع في يوم عاشوراء، من خطب مدمية للقلوب وينعتون إلى مراث مؤثرة في آل عليّ رضي الله عنه تشير في نفوسهم الكثير من الأحقاد بواسطة القصص الموضوعة والأكاذيب المفضوحة ويسبون الخلفاء من راشدين وأمويين، ثم يتصرفون إلى بيوتهم ليأكلوا القمح المسلوق والعدس وغيرها من المأكولات التي توارثتها أجيال بعدهم، وعرفت بعاشوراء حتى وقتنا الحاضر، ثم يصبحون في اليوم التالي ليبدأ عاماً جديداً من حياتهم، وأنظارهم موجهة إلى حكامهم وكان الخليفة يحتجب في قصره يوم عاشوراء وعند الضحى يركب قاضي القضاة والشهود في لباس خاص ويذهبون إلى مشهد الحسين المزعوم، فيجلسون ومعهم قرّاء القصر، والخطباء، فيدخل الوزير في صدر المجلس وعلى جانبيه القاضي والداعي، ويشرع القرّاء في تلاوة القرآن نوبة نوبة والجميع خشوع، وما أن ينتهون من قراءتهم حتى يقوم الشعراء، وهم عادة من غير شعراء القصر، فينشدون أشعاراً أعدّوها لهذه المناسبة المهمة وكانت أشعارهم رثاء أهل البيت، فإن كان الوزير رافضياً تغالوا، وإن كان سنّياً اقتصدوا. ويظلون على هذه الحال مدة ثلاثة ساعات، وبعد الانتهاء من القراءة والإنشاد كانت تأتيهم رسل الخليفة تستدعيهم، فيغادر أول من يغادر الوزير وهو بمنديل صغير إلى بيته وأما قاضي القضاة والداعي ومن رافقهما فيذهبون إلى باب الذهب من القصر، حيث يرون منظراً يختلف عمّا تعوّدوا عليه، فالسجاجيد الثمينة قد طويت لتحل محلها حصر بسيطة، وصاحب الباب جالس ينتظرهم، فيجلسون، والناس من وجهاء البلد والعلماء والفقهاء والعسكر حولهم أو بجانبهم، فيقرأ قرّاء القرآن ثانية، كما ينشد المنشدون فيُكون الحاضرين ثانية ثم يفرش سماط الحزن وفيه نحو ألف زبدية من العدس والملوحات والمخلّلات والأجبان والألبان وأعسال النحل والفطير والخبز المغير لونه بالقصد. ووقت الظهر يقف صاحب الباب وصاحب المائدة فيُدخلان الناس للأكل، فيكون أول الداخلين القاضي والداعي ويجلس بقربهما صاحب الباب نيابة عن الوزير،

(1) المصدر نفسه (325/3)
(2) القاضي الفاضل ص 137.

ثم يدخل من يريد أن يأكل من الناس، وبعد الانتهاء من الأكل يغادر الجميع القاعدة ويطوف النائحون في القاهرة، ويغلق التجّار حوانيتهم حتى العصر ثم يفتحونها [1]، وتعود الحياة إلى طبيعتها بعد هذه البدع.

ولكم اشترك القاضي الفاضل في هذه الاحتفالات بحكم عمله وقربه من المؤسسة الفاطمية، لكنَّ هذه العاشوراء اختلفت عما تعود المصريون عليه، فليس، هناك قاضي قضاة، ولا داعي دعاة لأنهما عُزلا، وليس هناك منشدون ولا نائحون يطوفون في شوارع القاهرة، لأن اليوم كان معّداً لنوع آخر من الاحتفال، وهو الاحتفال بالقضاء على هذه الطقوس والمراسيم التي مارسها المصريون أكثر من مائتين عام، والقضاء على واضعي هذه الطقوس والمراسيم بشتى رموزها ومفاهيمها، ولم يذهب صلاح الدين إذا إلى المشهد الحسيني - المزعوم - كعادة الوزير، بل ذهب إلى جامع عمرو بن العاص للصلاة فصلّى ومعه عدد من أهالي الشام ومصر، وجلس بعد الصلاة جانباً وبقربه القاضي الفاضل يتباحثان فيما أنجزاه منذ الجمعة السابقة التي تّم فيها إلغاء الخلافة الفاطمية، وأثبتت فيها الدعوة للخليفة العباسي فدخل أحد الجنود مسرعاً وتوجّه إليهما وقال لهما شيئاً وخرج، فنظر كل من صلاح الدين والقاضي الفاضل أحدهما إلى الآخر فغمز القاضي الفاضل إليه وابتسما ابتسامة ارتياح وحبور، ثم سرعان ما غيّر صلاح الدين تعبير وجهه، وقال: لو عرفنا أنه، أي الخليفة العاضد، يموت في هذا اليوم ما عصضاه برفع اسمه من الخطبة. فضحك القاضي الفاضل وردّ عليه قائلاً: يا مولاي لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت [2]، فابتسم الحاضرون لهذه المداعبة الكلامية، بين الوزير صلاح الدين وكاتبه أو مستشاره التي انطوت فيها آخر صفحة من صفحات تاريخ الدولة الفاطمية فقد توفي العاضد آخر الخلفاء في هذا اليوم، يوم عاشوراء سنة 567هـ/1171م أي يوم ذكر مقتل الحسين بن علي [3].

6 - القاضي الفاضل والقضاء على الدولة الفاطمية:

لقد أشار المؤرخ المصري المقريزي إلى الدور الذي قام به القاضي الفاضل في الانقلاب على الفاطميين بقوله: واستعان صلاح الدين به - أي بالقاضي الفاضل - على ما أراد من إزالة الدولة الفاطمية حتى تّم مراده، فجعله وزيره ومستشاره [4]. وإن كلمة

---

(1) الخطط (431/1، 432، 490).
(2) أخبار الدولتين نقلاً عن القاضي الفاضل ص 139.
(3) القاضي الفاضل ص 139.
(4) الخطط (266/2).

استعان تشير إلى دور القاضي الفاضل في تنفيذ مخطّط صلاح الدين في القضاء على الدولة الفاطمية، كما أن اختيار صلاح الدين القاضي الفاضل وزيراً له ما هو إلا تعبير عن تقدير صلاح الدين لدور القاضي الفاضل في هذا المخطّط الخطير، وفي تأسيس قواعد الدولة الأيوبية التي سبقت هذا المخطط وهذا الاختيار يشير أيضاً إلى اعتراف واضح من صلاح الدين بدور القاضي الفاضل في إطاحة الفاطميين، وبأهمية القاضي الفاضل لخطط صلاح الدين المستقبلية، ولقد ظل صلاح الدين يجني ثمرة اختياره القاضي الفاضل وزيراً له حتى وفاته، ولقد كانت أعمال القاضي الفاضل في الإدارة المصرية منذ عهد أسد الدين، وأقواله في كتاباته في عهد صلاح الدين تشير إلى دوره الكبير في دعم الوجود السني في مصر، ولقد سعى من خلال مخطط سنّي واسع للقضاء على عوامل الانقسام الديني في العالم الإسلامي وحماية مصر من الاجتياح الفرنجي واستعادة فلسطين وقد واتته الفرصة لتحقيق هذه الأهداف مع صلاح الدين وسارع إلى تحقيقها [1]، فقد رأى في صلاح الدين مثالاً للقائد القادر على أن ينقذ مصر من الخطر الفرنجي من ناحية وأن يقدم لأمته الكثير - ولذلك منح صلاح الدين مصادره الوافرة من معلومات وتجربة وإدارة وأدب وشعر وأسس بمساعدته والتعاون معه شيئاً من الاستقرار الداخلي لمصر، بعد كل ما دهاها ودهى شعبها من محن ومصائب، وأدرك صلاح الدين أن القاضي الفاضل إنسان عظيم عقلاً وعلماً ومكانة وفي إمكانه أن يوصله إلى أهدافه في مصر من خلال مصادره الوافرة، وهكذا تضافر الرجلان على تحقيق غاية كبرى أحسّا بها، كل في ميدانه، على تحقيقها [2].

لقد كان القاضي الفاضل سياسياً ورجل دولة عظيماً، جمع بين واقعه السياسي ومرونته ودهائه وبين هدف كبير نذر نفسه له وصبر مع الأيام لتحقيقه، واستنشق رياح التاريخ حين هبّت واعتقد أن طريق الإسلام هو طريق أهل السنُّة، وكل طريق غيره لا يوصل إلا إلى الخلاف وتبديد الإيمان والقوى، وما غابت أرض فلسطين عن باله، وعندما لاحت فرصة استعادتها، وأيقن بصدق صلاح الدين في الجهاد من أجلها، اشتدّت عزيمته وشدّت رحاله، ولئن أوصله اختياره إلى سدّة عالية، فأصبح في دولة صلاح الدين وزير الدولة والرجل الثاني فيها، فإنه حقق بذلك كل ما يطمح رجل السياسة إليه من نجاح أهدافه وقضيته، بمساهمته في التخطيط والعمل، كما حقّق نجاحه هو وعلوَّ

(1) القاضي الفاضل ص 141.
(2) المصدر نفسه ص 157.

أمره، وتلك مطابقة تشهد لـه بالمواهب العريضة والدهاء الفائق [1].

كـان القاضـي الفاضـل المتحدث الرسمي بلسـان السلطان صـلاح الـدين فـي الـداخل والخارج، وكان على حد قول ابن كثير: أعز عليه من أهله وولده [2]، وكـان السلطان يشيد بفضله فيقول: لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل [3]، وقد بلغ القاضـي الفاضـل مكانـة سامية فـي الدولـة، فكـان السـاعد الأيمن لصـلاح الـدين، إذ جعلـه وزيره، ومشيره بحيث كان لا يصدر أمراً إلا عن مشورته، ولاينفذ شيئاً إلا عن رأيه، ولا يحكم في قضيته إلا بتدبيره [4]. إن هذا العالم الرباني يعلمنا دروساً مهمة منها، عدم الانعزال عن الشأن العام والعمل الاجتماعي والحكومي والحرص على كسب الخبرات وأهمية التميز في أداء العمل والتمسك بمنهج أهل السنة والتعاون مع إخوانه في العقيدة الصحيحة وتوظيف القدرات والإمكانات لخدمة المشروع السني وقدم لصلاح الدين النماذج السنية القيادية والخطط العملية ولم يبخل عليه برأي ولا مشورة ولا تجربة، كما أن حياة هذا الرجل مدرسة في فهم مقاصد الشريعة وفقه المصالح والمفاسد، وبناء الدول وزوالها كما نتعلم منه وهو الرجل المفكر والمفتي، الكبير في دولة صلاح الدين، أهمية معاملة عامة الشيعة بقوانين العدل ومحبة الخير لهم وعدم سفك دمائهم والحرص على تعليمهم وإنما يكون استخدام القوة ضد المؤامرات والتكتلات العسكرية ومع من لا يجدي معهم إلا استخدام القوة.

7 - القاضي الفاضل والجهاد:

صحب القاضي الفاضل صلاح الدين في جميع غزواته ببلاد الشام، ثم أقام بمصر ليشرف على الإدارة المالية ويعمل على تجهيز الجيش والأسطول، وبعدئذ عاد إلى بلاد الشام بجوار صلاح الدين وظل بالقرب منه حتى مرضه الأخير ووفاته مع القاضي ابن شداد سنة 589هـ/1193م [5] وهناك مواقف حاسمة للقاضي الفاضل تؤكد مكانته وعلو منزلته في الدولة الصلاحية، فعندما كان السلطان صلاح الدين مقيماً على مرج الصفر في بلاد الشام عام 571هـ/1176م طلب الصليبيون الهدنة منه فأجابهم إلى ذلك مضطراً لأن الشام كان مجدباً، ثم أرسل جيشه في صحبة القاضي الفاضل إلى الديار المصرية،

---

(1) القاضي الفاضل ص 159.
(2) البداية والنهاية نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء ص 132.
(3) النجوم الزاهرة (157/6).
(4) الخطط (366/2) دور الفقهاء والعلماء ص 132.
(5) وفيات الأعيان (202/7، 203).

حتى يستريح أفراد الجيش بها من ناحية ولخوفه من حدوث أي اضطرابات في مصر أثناء غيابه عنها من ناحية أخرى، ولذلك كان إرساله للجيش بصحبة القاضي الفاضل غاية الحزم والتدبير، ليحفظ ما استجد من الممالك خوفاً عليه ممن هنالك [1].

وإلى جانب ذلك كان القاضي الفاضل دائماً يلازم السلطان صلاح الدين في جهاده، ولعل ما يؤكد ذلك تلك الرسالة التي بعث بها إلى السلطان صلاح الدين يعتذر فيها عن عدم مشاركته في الجهاد ضد الصليبيين على حارم سنة 573هـ/1177م، لرغبته في أداء فريضة الحج فيقول ابن واصل: وتخلف القاضي الفاضل بمصر بنية الحج في السنة القابلة، ووصل منه كتاب إلى السلطان يذكر فيه: وأما تأسف المولى على أوقات تنقضي عاطلة من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها، وتجدد العوائق التي لا يوصل إلى آخرها حبلها، فللمولى نية رشده، أو ليس الله بعالم بعبده، وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله، لأنه غير مقدور له، ولكن عن النية لأنها محل تكليف الطاعة وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة، وإذا كان المولى آخذاً في أسباب الجهاد، وتنظيف الطرق إلى المراد، وهو في طاعة قد منَ الله عليه بطول أمدها، وهو منه على أمل في نجح موعدها، والثواب على قدر مشقته، وإنما عظم الحج لأجل جهده وبعد شقته، ولو أن المولى فتح الفتوح العظام في أول الأيام، وفصل القضية بين أهل الشرك وأهل الإسلام، لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت وصحائف البر المكتسبة بالمرابطة والانتظار قد طويت [2].

8 - القاضي الفاضل والأديب:

برز القاضي الفاضل في عصره كأديب، ونُسبت إليه مدرسة نثرية عُرفت بمدرسة القاضي الفاضل في النثر، خلّدته بين الأدباء، وكإداري قدير، وضعته إدارته في صفّ الوزراء النابغين؛ وكإنسان كرّس حياته لخدمة الشعوب التي احتكّ بها، وفي الجهاد لتحرير مناطق إسلامية اغتصبتها شعوب غربية قسراً وقد أجاد القيام بأدواره العديدة كل الإجادة، حتى أن المؤرخَّين اعتبروه نموذجاً للإنسان المثالي في عصره.

ويقف الكثيرون في حيرة أمام أسلوب القاضي الفاضل، وإن صعب على البعض فهمه، يدلّ على ثقافة واسعة واطلاع دقيق على الأدب، والحديث والفقه وغيرها من العلوم، وعلى فهم عميق للقرآن، فالقاضي الفاضل كان يملك أكبر مكتبة في عصره،

(1) الكامل في التاريخ (79/10).
(2) مفرج الكروب (68/2) القاضي الفاضل ص 349.

تغنّى المؤرخون بها وأشادوا بمحتواها، كما ذكروا أن ما فيها بلغ المئة ألف، فكيف يوصف إنسان أو عصره بانحطاط التعبير؟ وهذا الإنسان لم يكن إدارياً أو سياسياً، فحسب، بل كان أيضاً أستاذاً كبيراً من أساتذة عصره، أمضى فترة تقاعده في التدريس وتثقيف الأجيال المقبلة، بمثل أسلوب القاضي طريقة ثالثة في التعبير اختصت اللغة العربية بها، إلى جانب الطريقتين الشائعتين في الآداب الأخرى، وهما الشعر والنثر المرسل، لكن التعبير الأدبي العربي يحتوى على ثلاثة نماذج: أولها وأقدمها، النموذج الشعري الذي تصل منابعه إلى الشعر الجاهلي ويمتد تدفّقه إلى عصرنا الحالي، والأسلوب الثاني أسلوب النثر المرسل، وهو الذي كُتبت به كتب التاريخ والفلسفة والفقه والأصول والتفسير والعلوم، وغيّرها ممّا أبدعه العقل العربي والإسلامي، وأما الأسلوب الثالث فهو أسلوب النثر الفني ونجد في هذا الباب، أدب المقامات، وأدب الرسائل الذي يعود إلى بداية التغيير الأدبي النثري متمثلاً في عبد الحميد الكاتب وكان هذا الأسلوب في عصر القاضي الفاضل وأمثاله من أبناء عصره هو الأسلوب المقبول في التعبير لا من ناحية بلاغته فحسب، بل من ناحية تأثيره أيضاً. فالرسائل التي كتبها القاضي الفاضل وأمثاله من أبناء عصره كانت بيانات سياسية واجتماعية، ومقامات تحمل مختلف المعاني [1]، ومما ينفي عن هذه الرسائل أية شبهة بالنسبة إلى مستوى الأسلوب والتعبير اللغوي، ما تحتويه في صلبها من إشارات إلى الأدب والحِكم والأمثال والأحاديث الشريفة، واقتباس من كتاب الله، فضلاً عن الصور التي تستخدمها لتواكب الأحداث [2].

9 - دعوته إلى الوحدة بعد وفاة صلاح الدين:

ظلّ القاضي الفاضل محافظاً على مكانته المعنوية في البلاد بعد وفاة صلاح الدين فاهتم العزيز عثمان ملك مصر بأمره وأكرمه، واتّخذ منه ناصحاً ومشيراً إلا إن القاضي الفاضل لم يظهر تهافتا أو اندفاعاً على التدخل في أمور الدولة، فقد آثر الانعزال عن العالم السياسي وتكريس الأعوام الباقية من حياته لمدرسته الفاضلية، ولا شكّ في أن اعتزاله السياسة في هذه الفترة يعود إلى أسباب عدة منها: أنه فقد بوفاة صلاح الدين الرجل الذي فيه وضع كل آماله وتوصل في عهده إلى مركز عالٍ لم يكن غيره يحلم بالوصول إليه في عهده، كما كرس قسماً كبيراً من حياته في نصحه وإرشاده ووهبه كل ما في وسعه من محبة وإخلاص، حتى أصبح لا يطيق الابتعاد عنه في حياته، فكيف بعد

(1) القاضي الفاضل ص 349، 350.
(2) القاضي الفاضل ص 350.

موته وافتقاده صلاح الدين ويأسه من الحياة بعد موته ظاهرات في عدد من رسائله التي أشار فيها إلى أمنيته بلقاء صلاح الدين في الآخرة: وما بايعنا الدنيا على أنّا خالدون فيها مع الأحبّة ولا أن الموت غير زايرنا وإن أطال الغبّة، والأحبّة الراحلون عنّا، إن اشتقنا إليهم فإنّ الأيام مراحلنا التي تدينا منهم، والأنفاس خطواتنا التي تخطو بنا نحوهم، فنحن في كل يوم سايرون إليهم، وفي كل يوم قادمون عليهم، فكيف لا ينقص الحزن بمقدار ما ينقُص من المسافة [1].

ولم يترك مناسبة تمر من دون ذكر صلاح الدين، فقد كان إذا رأى معارفه تذكّره، وإذا رأى الناس من حوله وردت صورته لخاطره، ذكر لعماد الدين في إحدى رسائله قوله: وَلِسَلْوة الأيام موعد هو الحشر، وأن ليلة لقائه هي ليلة القدر، ولقد حيَي فطابت الحياة، وتوفاه الله فطابت الوفاة وإن امرءاً يحسن به الضدان وَهُما ما هما، ومولى يطيب به الطوران، والحياة بالطيب أولاهما، لمعزورة فيه القلوب إذا خضعت تحت وطأة الخفقان، والجفون إذا أمردت عليها مؤرة الهملان [2]. كما أنه لم يعد المحرك السياسي للدولة بعد وفاة صلاح الدين، فقد تقسمت الدولة وتقسمّ العمل الذي كان يقوم به زمن صلاح الدين بين أشخاص عديدين، بينهم أشخاص لم يكن راضياً عن تصرفاتهم، زمن تنفّذه، كصفي الدين بن شكر وزير الملك العادل، وضياء الدين وزير الملك الأفضل، الذي حاول أن يبعده عن أصحاب أبيه ومستشاريه منذ البداية، ولقد أدرك القاضي الفاضل نهاية مسيرته بوفاة صلاح الدين، وعبّر عن مشاعره ببعض رسائله الإخوانية، يذكر في إحداها: وقد تبّرمت بالحياة، فبعد أن كنت ممن أخدمه بمكان العين صرت بمكان القذاة، والأعمار أكثرها الأكدار إلاّ إن أشدّها مؤونة ما كان في أواخر المدد حيث يكون المرء في أواخر الجلد [3].

ويمكن القول أنه تبّدد بوفاة صلاح الدين حلم كبير كرّس القاضي الفاضل له قسطاً كبيراً من حياته، فقد تقسّمت البلاد التي طالما سعى لتوحيدها وتقويتها بين أبناء صلاح الدين الذين راحوا يتنافسون في شأنها ويتناحرون مدفعين بأنانيتهم مُغفلين أمر العدوّ الرابض على حدودهم، فراح يدعوهم إلى التحالف ويحاول التقريب بينهم، ولم يترك مناسبة تمر دون أن يذكّرهم بضرورة توحيد الصف، فكتب للملك الظاهر بن صلاح الدين ضمن رسالة عزاء بوالده يقول: وأمّا لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق فما عدتم إلا

(1) المصدر نفسه ص 344.
(2) المصدر نفسه ص 344.
(3) القاضي الفاضل ص 345.

شخصه الكريم وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلية أهونها موته وهو الهول العظيم [1] وقد قام القاضي الفاضل بدور في الصلح بين العزيز عثمان بن صلاح الدين ملك مصر، والأفضل بن صلاح الدين ملك الشام [2].

وعمل على شّد أزر العادل أبي بكر أخي صلاح الدين، أكبر أقارب صلاح الدين وأكثرهم خبرة لكي يقف وقفات صامده كأخيه ضد الخطر الصليبي فكتب له في إحدى رسائله سنة 593هـ/1196م: وما تجدّد من وصول العدو اللعين إلى جانب بيروت وخطر البلاد ما أذهل كل مرضعة وأوقع في ضائقة تنفق الأفكار فيها من سعة، وللإسلام اليوم قدم وإنْ زلّت زلّ وهمّة وإن ملّت فإن النصر منه ملّ، وتلك القدم قدم العادلية وتلك الهمّة الهمّة السابقة السيفية، فالله الله ثبتوا ذلك الفؤاد ودقّوا ذلك المهاد، وأسهروا في الله، فليست بليلة رقاد، ولا يُنظر في حديث زيد ولا عمرو، ولا أن فلانا نفع وضر، ولا أن من الجماعة من جاء ولا أن فيهم من مر انظروا إلى أنكم الإسلام كله برز إلى الشرك كله، وأنكم ظل الله، فإن صّممتم تلك النسبة فإن الله لا ناسخ لظلّه، واصبروا إن الله مع الصابرين ولا تهونوا، وإن ذهب الناصر فإن الله خير الناصرين، فما هي إلا غمرة وتنجلي وهَيْعة وتنقضي وليلة وتصبح، وتجارة وتربح [3]. لكنّه شاهد بعض المدن يسقط ثانية في يد الفرنج، فراح يتحسّر على انفراط العقِد الذي جمعه مع صلاح الدين، ويزداد بأساً وانعزالا وكان للأمراض التي تراكمت على القاضي الفاضل أثر في ابتعاده عن الجّو السياسي، فقد كان ضعيف البنية كثير المرض، وكان هذا يؤخّره عن الاشتراك في بعض الغزوات عندما كان صلاح الدين حياً، وفي رسائله كثير من الإشارة إلى مرضه وضعفه اللذين ازدادا بعد وفاة صلاح الدين [4]، وقد ذكر في إحداها إلى صديقه العماد الأصفهاني قوله: وسيدنا يعلم كيف حال الكبير إذا فقد الصغير، والضعيف المتثاقل إذا نودي للنفير، ما كأني عرفت الأيام، إلا في هذه الأيام، ولا كأن الدنيا لبستها إلا على أن يخلعني الحِمَام، فقد توقعت أمر الله أن يطرقني بياتاً وأنا نائم، أو ضحى وأنا هائم[5]، كما كتب إليه في إحدى رسائله يصف حالته الجسمانية قائلاً: وأصدرت هذه الخدمة ورجلاي قد عام النقرس إلى تقييدهما وتصفيرهما بالألطخة وتسويدهما، جنبي طريح،

(1) وفيات الأعيان (205/7) القاضي الفاضل ص 345.
(2) القاضي الفاضل ص 345.
(3) كتاب الروضتين نقلاً عن القاضي الفاضل ص 346.
(4) القاضي الفاضل ص 346.
(5) المصدر نفسه ص 347.

وما فيّ صحيح إلا سقمي فإنه صحيح وإذا خلوت إلى شيطان المرض أصيح [1]. وكتب إليه رسالة أخرى قائلاً: وأما أحوالي في جسمي فلا تسأل عن تداعي البنية، المفاصل مذهبة، والأسنان مضمدة والنقرس يغلي، وزيادة كالنقص زيادة العصا في ظليّ [2]. ووصف أوجاعه في آخر حياته للعماد أيضاً بقوله: وأخلاق الغلمان وما أدراك ما هيه نار حامية، وقد صرت أرى الصبر على الضرورة أولى من الابتلاء بهم في الخدمة، فأجوع ولا أقول أطعموني، وأظمأ ولا أقول اسقوني، وألقيت بيدي وقلت مرّوا، ومددت رجلي وقلت جرّوا [3].

10 - وفاته:

توفي القاضي الفاضل بعد كل هذه الآلام الجسمية والمعنوية في السادس من ربيع الأول 596هـ/1199م. قال العماد الأصفهاني في حوادث هذه السنة ناعياً إيّاه: تمت الرزية الكبرى والبليّة العُظمى وفجيعة أهل الفضل بالدين والدنيا، وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفناء إلى دار البقاء في داره بالقاهرة [4] وذكر في وفاته أنه عمل ليلة العشاء السابقة لوفاته في مدرسته، وجلس مع الفقيه ابن سلامة مدّرسها وتحّدث مع ما شاء وشوهد من كل ليلة أبش وأبسم وأهش، وقد طابت المحاضرة وطالت المسامرة وانفصل إلى منزله صحيح البدن فصيح اللسان، وقال لغلامه: رتّب حوائج الحمّام وعّرفتي حين أفضى مني المنام، فوافاه سحراً للإعلام، فما اكترث بصوت الغلام، ولم يدر أن كَلِم الحِمام حَمى من الكلام، وأن وثوقه بطهارته من الكوثر أغنَاه من الحمّام، فبادر إليه والده فألفاه وهو ساكت باهت، فعرف أن القدر له باغت فلبث يومه لا يُسمع له إلا أنينٌ خفيّ علم منه أنه بعهد الله وفي، ثم قضى سعيداً [5].

وعلق عماد الدين الأصفهاني على وفاته بقوله: ومضى شهيداً حميداً، فوفّاه الله تعالى الوصية، فكانت له بسيد الأولّين والآخرين أسوة، وإن تردّى عن ردء العمر فله من حُلل البقاء في عليين كسوة، ولأنه لم يبقى في مدّة حياته عملاً صالحاً إلا قدّمه ولا عهداً في الجنة إلا أحكمه، ولا عَقداً في البّر إلا أبرمه، فإن صنائعه في الرقاب، وأوقافه على سُبُل الخيرات متجاوزة على الحساب لا سيما أوقافه لفكاك أسرى المسلمين إلى يوم

---

(1) المصدر نفسه ص 347.
(2) المصدر نفسه ص 347.
(3) القاضي الفاضل ص 347.
(4) كتاب الروضتين نقلاً عن القاضي الفاضل ص 347.
(5) المصدر نفسه ص 347.

الحساب، وأعان طلبة الشافعية والمالكيّة عند داره بالمدرسة والأيتام بالكُتّاب والخيرات الدارّة على الأيام، فكانت له حياة ثانية إلى يوم البعث وإعادة حياة الأنام إلى أن قال: والسلطان رحمه الله - أي صلاح الدين - من مفتتحات فتوحه ومختتماتها، مبادئ أمور دولته وغاياتها، ما افتتح الأقاليم إلاّ بأقاليد آرابه وآرائه، ومقاليد غِناه وغَنائه [1].

ثانياً: الحافظ السلفي:

هو الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد السّلفي الأصبهاني [2] وهو من علماء المشارقة الذين هاجروا إلى مصر واستقروا بالإسكندرية ونفع الله بهم نفعاً عظيماً في نشر مذهب أهل السنة.

1 - قدومه إلى الإسكندرية:

نزل السّلفي الإسكندرية سنة 511هـ وكان عمره قد بلغ السادسة والثلاثين عاماً وكان تجمع لديه خبرات واسعة وحصل على علم وفير، وبلغ من النضج الفكري والتخصصي في ميدان علم الحديث مبلغ العلماء المتخصصين، فهو قد رحل إلى بلاد كثيرة، فأتيح له أن يلتقي بأعداد كثيرة من العلماء وكبار المحدثين أتقن على أيديهم الرواية وقواعد التحديث وعلوم المصطلح، وانتخب من كتبهم كثيراً من المختارات الجيدة والفوائد النادرة، ونسخ بخطه السريع الأجزاء الكثيرة [3] وكان أيضاً ذا خبرة وتجربة في الكتابة والتأليف فقد سبق له أن ألف معجماً لشيوخه في أصبهان، ومعجماً آخر لشيوخه في بغداد [4]. وكانت له دراية سابقة بالتحديث والتعليم، فهو قد زاول ذلك فعلاً في أوائل سنة 492هـ في بلده بأصبهان.. وكذلك أثناء إقامته في دمشق حيث اشتغل بالتدريس من سنة 509هـ إلى 511هـ ولم تكن ثقافة "السلفي" حين قدومه مقتصرة على الحديث وحده، وإنما كان أيضاً فقيها على مذهب الإمام الشافعي، فهو قد درس الفقه في نظامية بغداد على يد شيخه ألكيا الهرّاسي وفخر الإسلام الشاشي ويوسف بن علي الزنجاني وكان السلفي أيضاً متقناً لعلم القراءات عارفاً بحروفها ووجوهها، قد تتلمذ في ذلك على علماء القراءات المشهورين في عصره [5]، يقول الذهبي: نقلت من خط الحافظ عبد الغني المقدسي نقل خطوط المشايخ للسلفي بالقراءات وأنه قرأ بحرف عاصم

---

(1) المصدر نفسه ص 348.
(2) وفيات الأعيان (225/1) الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 16.
(3) سير أعلام النبلاء نقلاً عن الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 16.
(4) أبو الطاهر السلفي ص 96.
(5) المصدر نفسه ص 97.

[1]، على أبي سعد المطرز، وقرأ برواية حمزة [2]، والكسائي على محمد بن أبي نصر القصار وقرأ لقالون [3] على نصر بن محمد الشيرازي وقرأ برواية قُنبل [4] على عبد الله بن أحمد الخرقي، وقد قرأ على بعضهم في سنة 491هـ.

وفضلاً عن إلمام السلفي بالحديث ومعرفته بالفقه وعلم القراءات قبل أن يستقر في الإسكندرية، فقد كان ملماً أيضاً بالأدب واللغة العربية فقد درس ذلك كله أيام كان في بغداد على يد العالم اللغوي المشهور أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي شيخ الأدب في "النظامية" وكان شاعراً ينظم الشعر ويتذوقه ويحب سماعه ويختم كل مجلس من مجالسه التي أملاها على طلاب الحديث في سَلَماس بأبيات من شعر الحكمة النصيحة [5] أحب السلفي الإسكندرية وأهلها، فقد أكرموا وفادته، ورأى أنها المكان المناسب لإقامته حيث يمكنه فيها أن يفيد ويستفيد، فأقلع - مؤقتاً - عن نية مغادرتها إلى بلاد الأندلس، وقرر أن يتخذها دار إقامته، ولو إلى حين وكان قراره هذا يرجع في حقيقته إلى عدة أسباب بالإضافة إلى إكرام وحب أهل الإسكندرية له - منها ما يلي:

- موقع الإسكندرية الجغرافي المتوسط لبلدان العالم الإسلامي - وبخاصة بين الحجاز في المشرق وبين المغاربة والأندلس في المغرب - جعلها أشبه بملتقى الحجاج الأندلسيين والمغاربة الذين كانوا يستريحون فيها من وعثاء السفر أياماً أثناء توجههم إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وكذلك أثناء عودتهم منه إلى بلادهم، فكانوا ينتهزون فرصة استراحتهم فيها فيلتقي علماؤهم وأدباؤهم بعلمائها وأدبائها فُيسمعون ويَسمعون منهم، ويتبادلون معهم ضروباً من المعرفة والثقافة فيفيدون ويستفيدون.
- كانت الإسكندرية في مطلع القرن السادس الهجري ملتقى كثير من علماء الشام الذين كانت بلادهم مسرحاً للحروب الصليبية، والتي سقط بعض مدنها في أيدي الصليبيين كالقدس والرملة وكثير من مدن الساحل الفلسطيني [6] مما اضطر أولئك العلماء إلى هجرتها والنزوح عنها.
- نزوح عدد كبير من علماء صقلية المسلمين إلى الإسكندرية بعد أن احتل

---

(1) هو أبو بكر عاصم بن أبي النجود توفي 127هـ - وفيات الأعيان (224/2).
(2) هو حمزة بن حبيب بن عمارة المعروف بالزيات.
(3) هو عيسى بن وردان الزرقي الملقب بقالون قارئ المدينة.
(4) هو قُنبل عبد الرحمن بن خالد المكي، كان يلي الشرطة بمكة.
(5) الحافظ أبو الطاهر السِّلفي ص 99.
(6) المصدر نفسه ص 100.

النورمان جزيرتهم في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ونزوح عدد آخر من علماء الأندلس على أثر الهزات السياسية المتلاحقة التي أصيب بها بعض المدن الأندلسية مما دفع الكثيرين من العلماء إلى الهجرة وطلب الأمن كما فعل الفقيه المالكي المشهور أبو بكر الطرطوشي وغيره.

- تمتع أهل الإسكندرية بحرية الاعتقاد الديني - إذا قورنوا بأهل القاهرة - رغم انطوائهم رسمياً تحت نفوذ الخلافة الفاطمية الشيعية، فقد كانوا سنيين على مذهب الإمام مالك، وهذه الحرية النسبية جعلت الوافدين إلى مصر يتوجهون إلى الإسكندرية - بدلاً من القاهرة - للإقامة فيها بعيدين عن ضغوط المذهب الفاطمي الشيعي الذي يتنافى مع اعتقادهم السني.

هذه الأسباب وغيرها رغبت الحافظ السّلفي في البداية أن يقيم في الإسكندرية، ثم ما لبث أن رسخت فيها قدمه، وتقدمت به سنه، وأخيراً تزوج - وقد قارب الستين عاماً - من "ست الأهل" الإسكندرانية، فثقل بذلك حمله، ثم ألقى عصا الترحال بعد ذلك نهائياً عندما بنى له والي الإسكندرية العادل ابن السلار "مدرسته العادلية" وعهد إليه بالإشراف عليها والتدريس فيها، فاستقر به المقام وطاب له الحال، ولم يبرح تلك المدينة التي أحبها إلى أن توفاه الله تعالى [1].

2 - نشاطه العلمي ومدرسته :

بدأ الحافظ السّلفي تدريسه للحديث منذ وصل إليها سنة 511هـ حتى إذا ما توفي - محدث الإسكندرية آنذاك - الشيخ أبو عبد الله الرازي المعروف بابن الخطاب سنة 525هـ، جلس مكانه وأصبح بذلك شيخ الإسكندرية ومحدثها المتفرد دون منازع ثم أخذت شهرته وسمعته تتزايد يوماً بعد يوم، وراح حجاج الأندلس يتناقلون أخباره في كل مكان نزلوا به، فتسامع به طلاب الحديث في مصر وخارجها، فشدوا إليه الرحال، وتوافدوا على الإسكندرية من كل حدب وصوب ليلتقوا بمحدثها الكبير وحافظها المتقن فنشطت بذلك مدرسة الحديث وروايته فيها، وأصبحت لها مكانتها المرموقة في هذا الميدان من الدراسة، يقول: والإسكندرية تبع لمصر، ما زال بها الحديث قليلاً حتى سكنها "السلفي" فصارت مرحولاً إليها في الحديث والقراءات [2].

3 - المدرسة العادلية "السّلفية" :

(1) الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 101.
(2) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص 294.

ظل السّلفي يلقي دروسه في المسجد حيناً وفي منزلـه حيناً آخر، زهاء ربع قرن إلى أن ولي المدينة أبو الحسن علي بن السلار الملقب بالملك العادل، فاحتفل به وزاد في إكرامه وبنى لـه مدرسة سميت "المدرسة العادلية" نسبة إلى منشئها "العادل" ثم عرفت بعد ذلك بالمدرسة السّلفية نسبة إلى مدرسها السلفي [1] وقد بين الدكتور جمال الدين الشيال في كتابه أعلام الإسكندرية، أنها أنشئت في سنة 544هـ [2] وكذلك ذكر الدكتور حسن عبد الحميد صالح بأن المدرسة بينت سنة 544هـ [3].

وقد أشارت المصادر التاريخية إلى أن ابن السلار كان سنياً من أصل كردي [4] وأنه أظهر اعتناقه لعقيدة أهل السنة أثناء ولايته لثغر الإسكندرية، ثم أخذ يراسل نور الدين محمود حاكم حلب طمعاً في مساندته ضد السلطة الفاطمية، فتوطدت بينهما صداقة وود، وأمده بالعون المادي لأن ابن السلار كان سنياً مثله ولأن نور الدين كان يطمع أن يفتح مصر أيضاً [5] وربما أشار نور الدين محمود على ابن السلار في مراسلتهما أن يطبق نفس التجربة التي طبقت في سوريا بشأن تقويض المذهب الفاطمي الشيعي والقضاء عليه عن طريق بناء المدارس فبنى ابن السلار هذه المدرسة، ووكل رعايتها والتدريس فيها إلى محدث الإسكندرية السني الحافظ "السلفي" [6]، وكان طبيعياً أن يكون هذا كله أثناء ولاية ابن السلار على الإسكندرية وقبل أن يستولي على الوزارة في 15 شعبان سنة 544هـ، وقد تخوف الخليفة الفاطمي "الظافر" وأحس بخطورة ابن السلار وأثر مدرسته السنية واستقطاب أهل السنة حولـه فتخوف منه وأخذ يكيد لـه، وعهد بالوزارة إلى نجم الدين بن مصال الوزير الشيعي، الذي ينحدر من أصل مغربي، فأغضب ذلك ابن السلار الرجل السني، فجمع أنصاره من أهل الإسكندرية السنيين وسار بهم إلى القاهرة، فدخلها بعد أن هزم ابن مصال عند الجزيرة في 14 رمضان سنة 544هـ [7]، وقد لا نكون مغالين إذا قلنا أن السبب الحقيقي بين ابن السلار وبين ابن مصال إنما هو نزاع بين عقيدة أهل السنة التي يساند الدعوة إليها نور الدين محمود،

(1) الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 104.
(2) أعلام الإسكندرية ص 137.
(3) الحافظ أبو الطاهر ص 105.
(4) وفيات الأعيان (76/2).
(5) تاريخ الدولة الفاطمية في مصر ص 183.
(6) الحركة الفكرية في مصر ص 158.
(7) الكامل لابن الأثير نقلاً عن الحافظ أبو طاهر السّلفي ص 106.

وبين المذهب الفاطمي الشيعي الذي يمثله الخليفة الفاطمي [1].

لقد كان لإنشاء هذه المدرسة فرحة عظيمة في نفوس أهل الإسكندرية واعتبروا بناءها هدية كبيرة من واليهم ابن السلار من واجبهم أن يشكروه عليها، فانبرى شعراؤهم يمدحونه ويثنون عليه، ويعبرون له عما في نفوسهم من الغبطة والابتهاج [2].

وقد تولى الحافظ "السّلفي" الإشراف على هذه المدرسة، فجعل منها مركز إشعاع لإعادة أهل مصر لعقيدة أهل السنة، ومنتدى لأهل الفكر والثقافة، فكان يلتقي فيها علماء الحديث وطلابه، ورجال الفقه والقراءات والأدباء والشعراء ورجال التاريخ وأصحاب الحكايات فنمت وازدهرت وكثر روادها والمتأثرون بما يلقى من دروس، وما يعقد فيها من لقاءات وندوات ومحاضرات، وقد تجلى تأثيرها واضحاً في أهل الإسكندرية بالذات من موقفين واضحين: أولهما يوم خرجوا مع واليهم ابن السلار للاستيلاء على الوزارة في القاهرة. وثانيهما يوم وقفوا يحاربون مع صلاح الدين ويناصرونه ضد الوزير الفاطمي شاور وحلفائه الصليبيين فلم يخذلوه أو يتخلوا عنه رغم الحصار الشديد الذي فرض عليهم ثلاثة شهور، بل حاربوا معه جنباً إلى جنب وبذلوا له كل ما يملكون من قوة ومال ورجال، إلى أن فك شاور والصليبيون الحصار [3].

وقد احتفظ صلاح الدين الأيوبي لأهل الإسكندرية بهذا الجميل، فلما أزال الدولة الفاطمية وأقام على أنقاضها دولته الأيوبية، أولى الإسكندرية اهتمامً خاصاً ورعاية كبيرة وذلك لأهمية موقعها الاستراتيجي في الدفاع عن مصر من ناحية ولما كان لأهل الإسكندرية من مكانة طيبة عنده لما ساندوه في وقفتهم البطولية حين حاصره "شاور" في مدينتهم سنة 562هـ، فوقفوا يذودون عنه ويقدمون له كل ما يملكون من رجال ومال وسلاح، ولهذا ليس بمستغرب أن نرى صلاح الدين يأمر منذ اللحظة الأولى لتوليه سلطنة مصر بإصلاح سور الإسكندرية وتحصين أبراجها وقلاعها وإدخال بعض المنشآت فيها. وليس هذا فحسب بل نراه يسافر بنفسه في سنة 572هـ إلى الإسكندرية ليشاهدها ويرتب قواعدها، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها [4]، في هذه الزيارة تفقد صلاح الدين الأسطول الحربي، ورأى ما آل إليه من خراب وإهمال فأمر بتجديده وتعميره، وبناء سفن جديدة تضاف إليه، وأفرد له ميزانية خاصة، وأنشأ له ديواناً

(1) تاريخ الدولة الفاطمية ص 184.
(2) الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 106.
(3) المصدر نفسه ص 107.
(4) مفرج الكروب (56/1).

خاصاً، وعين لـه قائد سماه "صاحب الأسطول"[1]، وظلت الإسكندرية محل رعاية صلاح الدين وعنايته، يوصي بالإنشاءات فيها ويتفقد أحوالها ويتابع الاهتمام بها إلى أن وافته الفرصة لزيارتها مرة ثانية في سنة 577هـ، فزارها ووقف بنفسه على ما تم فيها من إصلاحات وتفقد المنشآت التي أمر ببنائها، وأمر بسرعة إنجازه، يقول العماد الأصفهاني في وصف هذه الزيارة: وتوجه السلطان بعد شهر رمضان سنة 577هـ إلى الإسكندرية على طريق البحيرة، وخيم عند السواري، وشاهد الأسوار التي جددها والعمارات التي مهدها وأمر بالإتمام والاهتمام [2]. وفي هذه الزيارة حظيت الإسكندرية من صلاح الدين بتأسيس كثير من المنشآت العمرانية والمرافق العامة، فأنشأ فيها مدرسة كبيرة للطلاب الغرباء، يتعلمون فيها مختلف العلوم والآداب، وبنى لهم دار يقيمون فيها وحمامات يستحمون فيها، ومارستاناً يعالجون فيه بالمجان ويشرف عليه أطباء متفرغون [3]، ثم تتابع بناء المدارس في الإسكندرية في عهد صلاح الدين تتابعاً سريعاً، وفقاً لسياسته العامة في الإكثار من تشييد المدارس كوسيلة فكرية للقضاء على الفكر الفاطمي الشيعي، وقد كثر عدد المدارس في سنوات قليلة كثرة لفتت أنظار المؤرخين الذين زاروا الإسكندرية وكتبوا عنها.

يقول ابن خزيمة الذي زار الإسكندرية سنة 561هـ - 1164م وأقام فيها وكتب وصفاً لها: وبها مائة وثمانون مدرسة لطلب العلم بها [4]، وأمر صلاح الدين في هذه الزيارة الثانية بإنشاء مسجده الجامع الكبير ونقل الخطبة إليه، بعد أن كانت تقام في عهد الفاطميين في مسجد العطارين أكبر مسجد في المدينة [5]، ثم تبع ذلك بناء عدد كبير من المساجد بالإضافة إلى ما كان فيها من مساجد من قبل. وقد بلغ عدد المساجد في هذه الفترة رقماً عالياً لفت أنظار المؤرخين الذين زاروا المدينة فأخذوا يقدرونها تقديرات مختلفة يصلون فيها أحياناً إلى حد المبالغة [6]، وقد وصف ابن الجبير الذي زار الإسكندرية في سنة 578هـ - أي في زمن صلاح الدين - فيصف كثرة المساجد بها فيقول: وهي أكثر بلاد الله مساجد حتى أن تقدير الناس لها يطفف، فمنهم المكثر والمقل، فالمكثر ينتهي في تقديره إلى اثني عشر ألف مسجد، والمقل دون ذلك لا ينضبط فمنهم

(1) الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 60.
(2) كتاب الروضتين نقلاً عن الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 61.
(3) الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 61.
(4) الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 62.
(5) تاريخ المساجد الأثرية ص 67، حسن عبدالوهاب.
(6) الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 62.

من يقول ثمانية آلاف، ومنهم من يقول غير ذلك وبالجملة فهي كثيرة جداً تكون منها الأربعة والخمسة في موضع واحد، وربما كانت مركبة، وكلها بأئمة مرتبين من قبل السلطان [1]. وظلت عناية الأيوبيين بتعمير الإسكندرية مستمرة بعد صلاح الدين على نفس السياسة حتى نهاية القرن السادس الهجري[2].

4 - مميزات شخصية أبي الطاهر السلفي:

أ - جديته في الحياة:

كرّس الحافظ السلفي حياته كلها للتدريس والمطالعة والكتابة وإلقاء المحاضرات دون أن يؤثر عنه ملل أو سأم وكانت حياته كلها جادة صارمة كما وصفها تلميذه الحافظ عبدالقادر الرهاوي بقوله: وبلغني أن مدة مقامة بالإسكندرية ما خرج منها إلى بستان ولا فرجة سوى مرة واحدة بل كان لازماً مدرسته، وما كنا ندخل عليه إلا ونراه مطالعاً في شيء... وأنه ما رأى منارة الإسكندرية إلا من طاقة كانت في داره [3]، ووصفه ابن العماد أيضاً بقوله: واستوطن "السلفي" الإسكندرية بضعاً وستين سنة مكباً على الاشتغال بالعلم والمطالعة وتحصيل الكتب [4].

ب - احترامه لمجلسه:

كان - رحمه الله - حليماً متواضعاً، موطّأ الأكناف يألف الناس ويألفونه، ويتحمل الإساءة، ويصبر على جفوة الغرباء، يحب رواده، ويقبل على الجميع منهم بكل وجهه ومشاعره، لا يدخر وسعاً في إفادتهم والتلطف معهم والإخلاص لهم، وصفه خليل الصفدي بقوله: وكان لا يكاد تبدو منه جفوة في حق أحد، وإن بدأته بادرها حتى لا ينفصل عنه أحد إلا طيب القلب، ومع ذلك كله فلم يكن يسمح أثناء الدرس الواحد من الحاضرين أن يلهو أو يعبث أو يتحدث مع جاره أو يشغل غيره عن الإصغاء والمتابعة مهما كان شأنه ومكانته، حتى إذا ما انتهى من عبارته أو فكرته التي يتحدث فيها أتاح للحاضرين الاستفسار والتعليق. روى الحافظ الذهبي أن السلطان صلاح الدين وأخاه حضرا يوماً عنده لسماع الحديث وأنهما تحدثا معاً بصوت منخفض، فالتفت إليهما وزيرهما وأظهر لهما عدم الرضا، وقال: أيش هذا؟ نحن نقرأ حديث النبي ﷺ - وأنتما

(1) رحلة ابن جبير ص 43.
(2) الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 63.
(3) الحافظ أبو الطاهر السّلفي ص 114.
(4) شذرات الذهب (255/4).

تتحدثا؟ فأصغيا عند ذلك [1].

ج - حبه للمطالعة وجمع الكتب:

وكان - رحمه الله - كثير المطالعة، واسع المعرفة، مجداً في التحصيل، كثير البحث عما يشكل، لم يكن يشغله بعد الفراغ من التدريس إلا القراءة في كتاب أو النسخ من كتب الآخرين أو التحقيق والتعليق عليها. وقد وصفه تلميذه الحافظ عبد القادر الرهاوي فقال: ما نكاد ندخل عليه إلا ونراه مطالعاً في شيء. وكان يحب الكتب حباً جماً ويحرص حرصاً شديداً على جمعها وتملكها، حتى لقد تجمع لديه منها مجموعات كثيرة منوعة لم يسعفه الوقت للنظر فيها، فلما مات وجدوا معظمها قد عفنت ولصق بعضها ببعض، نتيجة لرطوبة جو الإسكندرية مما أدى إلى تلف الكثير منها [2]، وما كان يصل إليه من المال كان يخرجه.

5 - علاقته مع المثقفين:

كانت حلقات الدرس في المسجد أولاً ثم في المدرسة بعد ذلك هي همزة الوصل بينه وبين كافة فئات المثقفين من الناس وقد استطاع من خلال تلك الحلقات أن يكون له صلات واسعة مع عدد كبير من علماء الحديث وطلابه، ومع رجال الفكر والأدب، كالكتاب والأدباء والشعراء، ومع كبار موظفي الدولة كالولاة والقضاة وغيرهم ومع أرباب المهن والحرف المختلفة كالأطباء والمهندسين والتجار والورّاقين ومجلدي الكتب وأئمة المساجد والوعاظ والنسّاخ والمؤذنين، ومع كثير من حجاج المغرب والأندلس الذين كانوا يفدون إلى الإسكندرية في طريقهم إلى الحج، وأما علاقته مع الشعراء، فقد كانت طيبة متميزة يسودها الود والتعاطف فقد كان يأنس بهم ويحب مجالستهم والاستماع إليهم ويقارضهم القصيد أحياناً، فقد كان شاعراً مثلهم، يقول الشعر ويتذوقه وينقده، وصفه الحافظ الذهبي بقوله: وكان يستحسن الشعر وينظمه ويثيب من امتدحه[3].

6 - علاقته مع العوام:

كانت طيبة للغاية، فهم قد أنزلوه من نفوسهم منزلة عالية، وكان يحضرون عنده في بعض الأوقات ليتبركوا به لتقواه وصلاحه، بل لقد كانوا يبالغون في تقديرهم واحترامهم

---

(1) الحافظ أبو الطاهر ص 118

(2) المصدر نفسه ص 119.

(3) سير أعلام النبلاء نقلاً عن الحافظ أبو الطاهر السّلفي ص 128.

لـه وأخذوا يعتقدون فيه البركه [1]، ومن لطيف ما رواه الحافظ الذهبي في هذا المقام أن العامة من أهل الإسكندرية كانوا يهرعون إليه - إذا تعسرت امرأة في ميلادها ليكتب لهم بعض الأدعية في ورقة وكان يكتب لهم ولا يمنع وكان نص ما يكتب: اللهم إنهم قد أحسنوا ظنهم بي، فلا تخيب ظنهم فيّ [2].

7 - علاقته مع الدولة الفاطمية:

تجنب السلفي الاصطدام بالدولة الفاطمية ما أمكنه حتى لا يؤذوه كما آذوا غيره من علماء الإسكندرية أو يمنعوه من التحديث كما فعلوا من قبل مع المحدث أبي إسحاق الحبال المصري [3]، فتجنب نقدهم والإساءة إليهم بشكل يثير حفيظتهم عليه، فابتعدوا عنه وتركوه وشأنه، بل إن بعضهم كان يذهب إلى حلقة درسه ويستمع إليه.

ومما ساعد الحافظ السّلفي في نجاحه في تأدية رسالته أن الدولة الفاطمية في تلك الفترة في 511هـ - 567هـ قد أخذ نجمها ينحدر نحو الأفول والزوال، وأن الخلفاء أنفسهم كانوا ضعافاً مسلوبي الإرادة والإدارة، يتحكم في أمورهم ومصائرهم الوزراء المتصارعون على كرسي الحكم ومركز القوة والسلطان، وأن أولئك الوزراء لم يكونوا حريصين على رعاية المذهب الفاطمي والمحافظة عليه بقدر ما كانوا حريصين على السيطرة والبقاء في سدنة الحكم، بل كان بينهم وزراء سنيون [4]، وهؤلاء الوزراء جميعاً على اختلاف مذاهبهم لم يكن يهمهم أمر المذهب الفاطمي في كثير أو قليل [5].

وكانت صلته بولاة الإسكندرية السنيين الذين لم يتمذهبوا بالمذهب الفاطمي حسنة طيبة، فهم كانوا يحبونه ويجلونه، ويعرفون له قدره، ويحضرون دروسه، ويقرأون عليه، فالوالي قسطة الآمري كانت بينه وبين "السلفي" مودة ومكاتبة. قال عنه في معجم السفر: وقسطة هذا من عقلاء الأمراء المائلين إلى العدل، المثابرين على مطالعة الكتب، وأكثر ميله إلى التواريخ وسير المتقدمين، وكانت بيني وبينه مودة ومكاتبة[6]، وأما نائب والي الإسكندرية أبو الرضا عبدالله بن الفضل بن دُليل الحضرمي فقد قال في ترجمته:.. وكان يلازمني ويراجعني في المسائل التي يتشكك فيها، وقرأ عليّ "البخاري لابن بطال"

---

(1) الحافظ أبو الطاهر السّلفي ص 130.
(2) المصدر نفسه ص 130.
(3) المصدر نفسه ص 132.
(4) الحافظ أبو الطاهر السّلفي ص 134.
(5) المصدر نفسه ص 135.
(6) المصدر نفسه ص 136.

قراءة دراية لا رواية [1]. وأما والي الإسكندرية العادل بن السلار، فقد أكرمه، ووضعه في مكانة عالية تليق به، وبنى له المدرسة "العادلية" وعهد إليه إدارتها والتدريس فيها، وكفاه الإنفاق عليها بأن وقف لها أوقافاً تدر عليها وتسد نفقاتها واحتياجاتها. هذه أمثلة لصلة الحافظ السلفي برجال الدولة الفاطمية الرسميين، وهي كما تبدو علاقة طيبة، واضح فيها التقدير والاحترام رغم أنه لم يزر واحداً منهم في بيته أو مقر عمله [2].

8 - علاقته مع رجال الدولة الأيوبية:

فرح الحافظ السّلفي فرحاً عظيماً لزوال الدولة الفاطمية الشيعية، وقيام الدولة الأيوبية السنية على أنقاضها، الذين شرعوا منذ اللحظة الأولى من قيام دولتهم يدعون إلى إعادة اعتناق عقيدة أهل السنة، وإلى إزالة كل مظهر من مظاهر الاعتقاد الفاطمي وإلى تخويف كل من يحاول إعادة المذهب الفاطمي أو الدعوة إليه. ومع هذا فإن الحافظ السّلفي لم يقرع باب أحد من السلاطين الأيوبيين أو أمرائهم لا مهنئاً ولا شاكراً، تماماً، كما كان يفعل مع حكام الفاطميين وأمرائهم من قبل وأكبر سلاطين بني أيوب وأمراؤهم في السّلفي هذا السلوك وأخذو يسعون هم إليه ويحضرون حلقات دروسه، فيستمعون إليه كما يستمع غيرهم، بكل تقدير وإجلال وإكبار، فالسلطان صلاح الدين على مهابته وجلال قدره وعلو مكانته كحاكم لمصر كلها، ذهب بنفسه من القاهرة إلى الإسكندرية - يصحبه ولداه الأفضل "علي" والعزيز "عثمان" وأخوه "العادل" وسكرتيره "العماد الأصفهاني" وكبار رجال دولته لزيارته ويسمع الحديث منه [3].

يقول القاضي ابن شداد في وصف تلك الزيارة أثناء حديثه عن أخلاق السلطان صلاح الدين وعن حبه لسماع الحديث الشريف: وكان السلطان شديد الرغبة في سماع الحديث، ومتى سمع عن شيخ ذى رواية عالية وسماع كثير، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه، وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين، ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع منه... وقد تردد إلى الحافظ "السّلفي" بالإسكندرية، وروى عنه أحاديث كثيرة [4] وقد نقل أبو شامة صاحب كتاب الروضتين عن العماد الأصفهاني، وصفاً تفصيليا لتلك الزيارة، فقال: ثم خرج السلطان من القاهرة يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، واصطحب معه ولديه الأفضل "علياً" والعزيز

---

(1) المصدر نفسه ص 136.
(2) المصدر نفسه ص 136.
(3) السلوك للمقريزي نقلاً عن الحافظ أبو الطاهر ص 137.
(4) النوادر السلطانية ص 7 الحافظ أبو الطاهر ص 138.

"عثمان"... ثم وصلنا إلى ثغر الإسكندرية، وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السِّلفي وداومنا الحضور عنده واجتلينا من وجهه نور الإيمان وسعده وسمعنا عليه ثلاثة أيام: الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان واغتنمنا فرصة الزمان، فتلك الأيام الثلاثة هي التي حسبناها من العمر [1].

ومن ألطف ما حدث في تلك الزيارة أن الملك العادل، كان يجلس في أحد تلك الأيام الثلاثة بجوار أخيه السلطان، فمال عليه، وحمس في أذنه بكلام غير مسموع، فلما رآهما الحافظ " السِّلفي " زبرهما، وأظهر لهما عدم الرضا، فأصغيا [2].

9 - السِّلفي الشاعر وعلاقته بالشعراء:

كان الحافظ السلفي - رحمه الله - شاعراً، ينظم الشعر ويتذوقه وينقده عن دُربة ودراية وكان يحب الاستماع للشعراء والمنشدين، ويجزل العطاء لمن يمدحه[3]، وكان يحب حفظ الشعر وروايته والاستشهاد به في مجالسه، وترديد ما كان يعجبه على مسامع جلاسه، فهو كثيراً ما كان يردد قول الشاعر:

قالوا نفوس الدار سكانها ::: وأنتم عندي نفوس النفوس

وقال الشاعر:

نحن نخشى الإله في كل كرب ::: ثم ننساه عند كشف الكروب
كيف نرجو استجابة لدعاء ::: قد سددنا طريقَهُ بالذنوب

وقول الشاعر في المشيب:

حل المشيب بعارضي ومفارقي ::: بئس القرين أراه غير مفارقي
رحل الشباب فقلت: قف لي ساعة ::: حتى أودع. قال: إنك لا حقي

وقال الشاعر في عزة النفس:

مترلي مترل الكرام ونفسي ::: نفس حُّر ترى المذلة كفراً
وإذا ما قنعت بالقوت دهري ::: فلما أزور زيداً وعمراً [4]

وكان يعجبه قول أبي إسحاق الشيرازي في الصديق الوفي:

سألت الناس عن خلّ وفيٍّ ::: فقالوا ما إلى هذا سبيل

---

(1) الحافظ أبو الطاهر ص 138.
(2) المصدر نفسه ص 139.
(3) المصدر نفسه ص 170.
(4) المصدر نفسه ص 173.

تمســـك إن ظفـــرت بـــودِّ حُـــرٍّ ::: فـــإن الحُـــرَّ في الـــدنيا قليـــل [1]

وقد حفظت لنا بعض الكتب حكايات، حدثت لـه مع بعض الشعراء، نروي منها هذه الحكاية، لما كان لها من أثر في تحريك عواطفه وإثارة مكامن الشوق والحنين لأهله وبلده أصبهان.. يقول أبو أحمد أبو محمد عبد الله بن محمد التجيبي الأندلسي المعروف بابن المليح: إن أبا الحجاج ابن الشيخ أنشد أبا الطاهر "السّلفي" هذه الأبيات:

أيـــا مـــن حـــلّ نـــور عـــيني ::: ويـــا مـــن حـــاز كـــلّ عُـــلاً وزيْـــنِ
أنا مُـــذْ صـــرت عبـــدك زدت فخـــراً ::: وزال بملككـــم نقصـــي وشَـــيْني
أتيـــــتكم لأقـــــرأ أو لأروي ::: فعـــدت لمـــترلي صِـــفر اليَـــدَين
قـــريح القلـــب لم أضـــفر بشـــيء ::: كـــأني لم أكـــن أهـــلاً لـــذين
يـــروح النـــاسُ عنـــك بكـــل خـــير ::: وأرجـــع لابســـاً خفّـــيْ حُنَـــيْنِ
ومـــا ذنـــبي ســـوى أني غريـــب ::: وقـــومي حيـــل بينـــهُمُ وبَـــيْني

يقول أبو محمد ابن المليح: قال لي أبو الحجاج: لما وقف الشيخ أبو طاهر على هذه الأبيات وبلغ قولي:

ومـــا ذنـــبي ســـوى أني غريـــب ::: وقـــومي حيـــل بينـــهم وبـــين

تواجد وبكى، وصاح بأعلى صوته: وقومي حيل بينهُمُ وبيني حنيناً إلى وطنه أصبهان، وشوقا إلى ما خلف من القرابة والإخوان وغش عليه، فجعل طلبته يلومونني ويقولون لي: ما هذا الذي جنيت علينا اليوم؟ وأدخل الشيخ داره فلم يخرج إلا بعد أربعة أيام [2].

وكان يقرض الشعر ومما قاله:

إن علـــم الحـــديث علـــم رجـــال ::: تركـــوا الابتـــداع للاتبـــاع
فـــإذا جـــنّ ليلـــهم كتبـــوه ::: وإذا أصـــبحوا غـــدوا للســـماع [3]

وقال معتزاً بما أكرمه الله به من معرفة بعلم الحديث :

إذا ذُكـــرت بحـــار العلـــم يومـــا ::: فقـــول المصـــطفى لا غيُـــر بحـــري
هـــو البحـــر المحـــيط ومـــا عـــداه ::: فأنهـــار صـــغار منـــه تجـــري [4]

ومدح الإمام الشافعي في قصيدة طويلة جاء فيها:

---

(1) الحافظ أبو الطاهر السّلفي ص 173.
(2) المصدر نفسه ص 173.
(3) سير أعلام النبلاء (36/21).
(4) الحافظ أبو الطاهر السّلفي ص 180.

فعليك يا من رام دين محمد ::: بالشافعي وما أتاه وقالا
أعني محمد بن إدريس الذي ::: فاق البرية رتبة وكمالا
وعلا على النظراء طّراً واغتدى ::: شمس الهدى والغير كان هلالا
وأبحث كذا عن صحبه وأحبهم ::: وأجلهم لله جل جلالا
وتجملن بهم وكن من حزبهم ::: فهُمُ الجَمَال لئن أردْت جمالا

ورد في هذه القصيدة على أصحاب التجسيم والمعطلة وتناول فيها مشاهير المذهب الشافيع واحداً إلى أن وصل إلى قوله:

وأعلم بأن أعزهم وأجلهم ::: شيخ الأنام سجية وفعالا
من لم يخف في الله لومة لائم ::: وبما رآه من الأذى ما بالا
ذاك ابن حنبل الإمام المقتدى ::: من فاق بين العالمين خصالاً[1]

10 - وفاته:

في صباح يوم الجمعة - وقيل ليلة الجمعة - الخامس من ربيع الثاني سنة 576هـ غربت شمس حياة السلفي من الوجود وأفل نجمه من سماء الإسكندرية إلى الأبد فانتهت بذلك حياة طويلة عامرة، دامت قرناً من الزمن، قضاها صاحبها في رحاب العلم والتدريس، والمطالعة والكتابة والتحصيل والإفادة، لم يتوقف عن ذلك يوماً من الأيام ولم يمنعه مانع، وإنما ظل يتابع ويفيد حتى آخر أمسية من أمسيات حياته [2]، وصلى عليه صاحبه أبو طاهر ابن عوف، فقيه الإسكندرية المالكي بعد ظهر الجمعة بجامع عبدالله بن عمرو بن العاص، ودفن في مقبرة "وعلة" التي ذكرها ابن خلكان بقوله: وهي مقبرة داخل السور عند الباب الأخضر [3]، فيها جماعة من الصالحين كالطرطوشي وغيره [4].

وقد زار قبره من المؤرخين المشهورين أبو شامة صاحب كتاب الروضتين في أخبار الدولتين. وذكر ذلك في أحداث سنة 576هـ فقال: وفيها توفي الحافظ السّلفي، وقد زرت قبره داخل الباب الأخضر [5].

إن الحافظ أبا الطاهر السّلفي من علماء الأمة الكبار وقد أكسب الإسكندرية بوجوده

---

(1) المصدر نفسه ص 183، 184.
(2) الحافظ أبو الطاهر السّلفي ص 254.
(3) أحد أبواب الإسكندرية القديمة، كان يقع في الناحية الغربية.
(4) وفيات الأعيان (221/1).
(5) كتاب الروضتين نقلاً عن الحافظ أبو الطاهر السّلفي ص 255.

بها شهر عالمية في علم الحديث والقراءات طول القرن السادس الهجري وعلى أهل الإسكندرية أن يفتخروا بهذا العالم الجليل ويردوا له الجميل فيعّرفوا الأجيال بمكانته أو يعيدوا للأذهان اسمه بإطلاقه على أحد المعاهد أو المدارس، أو أن ينشروا تراثه [1].

ثالثاً: أبو طاهر بن عوف الإسكندراني:

الشيخ الإمام، صدر الإسلام، شيخ المالكية، إسماعيل مكي بن إسماعيل بن عيسى ابن عوف بن يعقوب بن محمد بن عيسى بن عبد الملك بن حميد ابن صاحب النبي ﷺ، القرشي الزهري، العوفي الإسكندريُّ المالكي، من ذرية عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه[2]، ولد سنة خمس وثمانين وأربع مئة وتفقَّه على الأستاذ أبي بكر الطرطوشي وبرع، وفاق الأقران وتخَّرج به الأصحاب. وروى عن الطرطوشيّ (الموطَّأ) وعن أبي عبد الله الرازيّ. وكان إمام عصره، وفريد دهره في الفقه، وعليه مدار الفتوى مع الورع والزهاده وكثرة العبادة [3]، والتواضع التام، ونزاهة النفس [4].

وقد شهد أبو الطاهر بن عوف نهاية الدولة الفاطمية الشيعية وقيام الدولة الأيوبية، وقد زار صلاح الدين الإسكندرية في سنة 577هـ، وحرص في هذه الزيارة أن يحضر هو وأولاده وكبار دولته دروس أبي الطاهر بن عوف، وسمعوا عليه جميعاً "موطأ مالك" بروايته عن أستاذه الطرطوشي، روى خبر هذه الزيارة وهذا السماع العماد الأصفهاني، فقد كان مصاحباً لصلاح الدين فيهما، قال: وتوجه السلطان بعد شهر رمضان (577هـ) إلى الإسكندرية على طريق البحيرة وخيم عند السواري وشاهد الأسوار التي جددها والعمارات التي مهَّدها وأمر بالإتمام والاهتمام، وقال السلطان: نغتنم حياة الشيخ أبي طاهر بن عوف، فحضرنا عنده، وسمعنا عليه موطأ مالك رضي الله عنه - بروايته عن الطرطوشي في العشر الأخيرة من شوال، وتَّم له ولأولاده ولنا به السماع [5].

واعتقد الجميع أن صلاح الدين قد حصَّل خيراً كثيراً بتتلمذه عن ابن عوف وسماعه منه، فقد أرسل القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي البيساني رسالة جميلة بليغة إلى صلاح الدين يهنئه فيها بهذا السماع ويقارن فيها بين رحلة صلاح الدين مع ولديه لسماع الموطأ على ابن عوف ورحلة هارون الرشيد مع ولديه لسماع نفس الكتاب على مؤلفه

---

(1) الحافظ أبو الطاهر السّلفي ص 255.
(2) سير أعلام النبلاء (122/21).
(3) المصدر نفسه (123/21).
(4) الديباج المذهب ابن فرحون ص 95
(5) كتاب الروضتين (24/2).

الإمام مالك، وفيما يلي نص الرسالة.

أدام الله دولة المولى الملك الناصر، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين محي دولة أمير المؤمنين، وأسعد برحلته للعلم وأثابه عليها، وأوصل ذخائر الخير إليه، وأوزع الخلق شكراً لنعمته فيه فإن نعمه لا توصل إلى شكرها إلا بإيزاعه، وأودع قلبه نور اليقين فإنه مستقر لا يودع فيه إلا ما كان مستنداً إلى إيداعه، ولله في الله رحلتاه، وفي سبيل الله يوماه، وما منهما إلا أغر محجل. والحمد لله الذي جعله ذا يومين: يوم يسفك دم المحابر تحت قلمه، ويوم يسفك دم الكافر تحت عَلَمَه، ففي الأول يطلب حديث المصطفى ﷺ فيجعل أثره عيناً لا تستر. وفي الثاني يحفل لنصرة شريعة هداه على الضلال فيجعل عينه أثراً لا يظهر وقد استغرق الناس همم العلماء في رحلتهم لنقل الحديث وسماعه والموالاة في طلب ثقته وانتجاعه، وصنفوا في ذلك تصانيف قصدوا بها التحريض للهمم والتنبيه، والرفع من أقدار أهله والتنويه، فقالوا: رحل فلان لسماع مسند فلان وسار زيد إلى عمرو على بُعد المكان، هذا وصاحب الرحلة قد نصب نفسه للعلم وشغل به دهره، ووقف عليه فكره، فلا يتجاذب عنان همته الكبائر فما القول في ملك خواطره كأبوابه مطروقة وأمور خلق الله كأمور دينه به معذوقة، إذ هاجر إلى بقية الخير في أضيق أوقاته، وترك للعلم أشد ضروراته، ووهب له أياماً مع أنه في الغزاة يحاسب لها نفسه على لحظاته وساعاته وما يحسب الملوك أن كاتب اليمين كتب لملك رحلة في طلب العلم إلا للرشيد هارون - رحمة الله عليه - على أنه خلط زيارة نبوية بطلب، ورحل بولديه إلى مالك - رحمة الله عليه - لسماع هذا الموطأ، الذي اتفقت الرشيدية والناصرية على الرغبة في سماعه، والرحلة لا نتجاعه.

وقد كان الرشيد سام مالكاً رحمه الله أن يجعل له ولولديه: الأمين والمأمون مجلساً خاصّاً لإسماع مصنفه، فقال له ما معناه: إنها سنة ابن عمك ﷺ وغيُرك من سترها، ومثلك من نشرها، فهذه رحلة ثانية في الزمان، وأولى في الإيمان، يكتبها الله للمولى بقلم كاتب اليمين، ويقوم فيها مقام الرشيد، ويقوم عليُّه وعثمانه [1]، مقام ولديه المأمون والأمين، وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد على مالك رحمة الله عليه في خزانة الكتب المصرية، فإن كان قد حصل بالخزانة فهو بركة عظيمة، ومنقبة كريمة، وذخيرة قديمة وإلا فليلتمس وكذلك خطُّ موسى بن جعفر في فتيا المأمون - رحمهما الله كان أيضاً فيها، وكلاهما يتبرك بمثله، ويعلم به فضل العلم، لا خلا المولى - أبقاه الله - من فضله، وقف المملوك على ما بشر من صنع المولى وتوفيقه، وصحة مزاجه في طريقه، وانقطاع ما

(1) يقصد ولدي صلاح الدين: الأفضل علي والعزيز عثمان.

كان من دم، واستراح القلب من كل هم، وقد استفتحت هذا الطريق بكل قال، مباركة الكبر والفال، مأثورة عن سيد البشر، فمن ذلك صحة جسمه، فلتهنه الصحة، وفسحة قلبه دامت له الفسحة، وانقطاع الدم، وطريقه إلى الشام ينقطع به الدم، ويتصل النصر له وينتظم السلم، وأخرى أنه رحل إلى الموطأ رحم الله مالكه، ويرحل فيما يطلب من الشام إلى الموطأ أسعد الله ابن ممالكه، والله تعالى يحقق الخير، ويصرف الضير، ويبارك لمولانا في المقام والسير إن شاء الله [1]. وأصبحت لابن عوف عند صلاح الدين منذ ذلك الحين مكانة كبيرة، يجعله ويحترمه، ويقدره، ويوقره، وإذا اعترضته مشكلة الدين أو الدولة، أرسل إليه يسأله الرأى والفتوى ويؤكد هذا قول ابن فرحون.

وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يعظّم ابن عوف ويراسله ويستفتيه [2]، وقد روى الصفدي في كتابه "نكت الهميان" قصة مراسلة من هذه المراسلات عن ترجمته للقاضي شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون، فقد أضَّر هذا القاضي آخر عمره أثناء توليه القضاء وثار الجدل حول جواز بقائه في منصبه بعد إصابته بالعمى، وكان ابن أبي عصرون نفسه حريصاً على أن يظل قاضياً، فألف رسالة أيَّد فيها جواز أن يكون القاضي أعمى، وهو رأى تقول به القلة من الفقهاء وترفضه الكثرة، ويبدو أن صلاح الدين كان حريصاً على إرضاء ابن أبي عصرون وعدم المساس بشعوره في شيخوخته، فأرسل يستفتي ابن عوف في الأمر، قال الصفدي: وكتب السلطان صلاح الدين بخطه إلى القاضي الفاضل يقول فيه: إن القاضي قال: إن قضاء الأعمى جائز، فتجتمع بالشيخ أبي الطاهر بن عوف الإسكندري وتسأله عما ورد من الأحاديث في قضاء الأعمى [3].

وكان صلاح الدين يستجيب لراي ابن عوف ومشورته، فقد أسرع بتلبية رغبته عندما أشار عليه بإعادة ضريبة الصادر، وهي ضريبة كانت تفرض على تجارة الفرنج الصادرة من الإسكندرية وتوزع حصيلتها على فقهاء الثغر [4]، وقد أشارت المراجع إلى أن نشاط ابن عوف لم يكن مقصوراً على التدريس وحسب، بل كان له نشاط مماثل في ميدان التأليف، فقد قال السيوطي: وله مؤلفات [5]، وللشيخ أبي الطاهر تذكرة

(1) كتاب الروضتين (24/2، 25).
(2) أعلام الإسكندرية ص 119.
(3) الوفيات (256/2) نكت الهيمان ص 185.
(4) أعلام الإسكندرية ص 120.
(5) المصدر نفسه ص 120.

التذكرة في أصول الدين وغير ذلك في التأليف [1]. وفي سنة 581هـ توفي ابن عوف ودفن في الإسكندرية وله ست وتسعون سنة [2].

إن ما قام به أبو الطاهر السِّلفي وأبو الطاهر بن عوف من طلب العلم ونشره بين الناس والعمل على إحياء المذهب السني من أعظم الجهاد، فإن الاشتغال بطلب العلم وتعليمه من أعظم الجهاد لمن صحت نيتُه ولا يوازنه عمل من الأعمال لما فيه من إحياء العلم والدين، وإرشاد الجاهلين، والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر والخير الكثير الذي لا يستغني العباد عنه [3].

فالعلم عبادة تجمع عدة قربات التقرب إلى الله بالاشتغال به، فإن أكثر الأئمة نصوا على تفضيله على أمهات العبادات، وذلك في أوقاته الزاهرة بالعلم، فكيف بهذه الأوقات التي تلاشى بها وكاد أن يضمحل، والاستكثار من ميراث النبي ﷺ وأن من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، ونفعه واصل لصاحبه، ومتعّد إلى غيره، ونافع لصاحبه حياً وميتاً، وإذا انقطعت الأعمال بالموت، وطويت صحيفة العبد، فأهل العلم حسناتهم تتزايد كلما ائتُمّ بإرشادهم واهتُدى بأقوالهم، فحقيق بالعاقل الموفق أن ينفق فيه نفائس أوقاته، وجوهر عمره، وأن يعده ليوم فقره، وفاقته [4].

رابعاً: عبد الله بن أبي عصرون:

الشيخ الإمام العلامة، الفقيه البارع، المقرئُ الأوْحَدُ، شيخ الشافعية، قاضي القضاة شرف الدين، عالم أهل الشام، أبو سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله ابن المطَهَّر بن علي بن أبي عصرون بن أبي السَّريّ، التَّميميُّ الحديثيُّ الأصل، الموصليُّ، الشافعي [5]، وقد تولى ابن أبي عصرون في عهد نور الدين قضاء سنجار ونصيبين وحران وغيرها من مدن ديار بكر، وأصبح هناك أشبه بقاضي القضاة ينوب عنه في سائر المدن نواب أشرف على تعيينهم بنفسه [6]، فقد ولد بالموصل سنة 492هـ أو 493هـ وتفقه على جماعة من العلماء وانتقل إلى حلب سنة 545هـ - 1150م، ثم قدم دمشق لدى دخول نور الدين إليها عام 549هـ - 1154م ودرس في جامع إلى حلب وأقام بها، وصنف كتباً

(1) المصدر نفسه ص 121.
(2) سير أعلام النبلاء (122/21) السنة النبوية في القرن السادس ص 677.
(3) الأسباب والأعمال التي يضاعف بها الثواب.
(4) المصدر ص 74.
(5) سير أعلام النبلاء (126/21).
(6) عصر الدولة الزنكية للصَّلاَّبي ص 241.

كثيرة في الفقه والمذاهب ودرس على يديه عدد كبير من التلاميذ وانتفعوا به وكان فقيهاً من طراز أول، ووصف بأنه من أفقه أهل عصره وأنه إمام أصحاب الشافعي يومذاك وكان متوحداً في العلم والعمل وسرعان ما تقدم عند نور الدين فكلفه بالإشراف على بناء المدارس في حلب وحمص وبعلبك وغيرها، ثم ما لبث أن ولاه قضاء ديار بكر ومنحه صلاحيات واسعة [1]، كما اعتمده عام 566هـ - 1170م رسولاً إلى الخليفة المستضيء في بغداد[2].

1 - عبد الله بن أبي عصرون وصلاح الدين الأيوبي:

كان صلاح الدين على معرفة تامة بعبد الله بن أبي عصرون منذ أيام نور الدين محمود زنكي فكلاهما نشأ في ظله وتحت رعايته خاصة صلاح الدين وكان الاثنان من رجاله الأكفاء، إحداهما يشتغل بالقضاء والحكم والفتيا والتعليم والعلم. والآخر يشتغل بالأمور العسكرية ويوليها اهتماماً زائداً وتدل مجريات الحوادث منذ أيام نور الدين محمود زنكي على أن العلاقات بين الرجلين كانت سليمة تسيرها روح الود والمحبة والتقدير، فقد عرف كل منهما الآخر حق المعرفة وبادله الاحترام بمثله، والدليل على ذلك الرسالة التي بعثها صلاح الدين من مصر للشام إلى ابن عصرون ولعل اختياره بالذات تفضيل له على غيره واعتراف بقدرته على التأثير في الأحداث، لذا كانت رسالته تحمل في طياتها نوعاً من العتب عليه وأملاً في أن يعمل بجد لإفشال تلك الاتفاقية الغادرة، وكان عبدالله بن أبي عصرون لا يحبذ تلك الاتفاقية ولم يوافق عليها مع من وافق ولعله كان يعاني الألم النفسي لما حل بالمسلمين من الضعف بل كان يحبذ مجيء صلاح الدين من مصر ليعملا سوياً وبانسجام تام لتحطيم مثل هذه الاتفاقية، والانطلاق إلى تحقيق الهدف المعلن، وهو طرد المحتل الصليبي الجاثم فوق الأرض الإسلامية في بلاد الشام [3]، ويبدو أن ابن أبي عصرون كان يحبذ قدوم صلاح الدين من مصر إلى الشام - بعد وفاة نور الدين واختلاف الأمراء من بعده - ويؤيد هذا القول أنه لم يوقع أولاً على الاتفاقية شأنه في ذلك شأن أمراء الشام وقضاته خاصة، وأنه كان من الشخصيات الكبيرة في المجتمع. وثانياً أنه وقف ضد الأمراء الذين طلبوا الاستمرار في معاداة صلاح الدين الأيوبي والعمل ضد قدومه إلى بلاد الشام الأمر الذي جعل

(1) عصر الدولة الزنكية ص 242 وفيات الأعيان ص 242.
(2) مرآة الزمان (283/8) عصر الدولة الزنكية ص 243.
(3) المدارس العصرونية في بلاد الشام، د. صادق أحمد ص 29.

صلاح الدين يوليه قضاء مصر [1]، ومع ذلك ذهب عبدالله بن أبي عصرون من دمشق إلى حلب مع الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود زنكي قبل قدوم صلاح الدين إلى دمشق، ولم يمكث طويلاً بل عاد إلى دمشق ثانية وكان بها صلاح الدين الأيوبي عام 572هـ، وذلك عندما أشرف كمال الدين الشهرزوري قاضي الشام أيام صلاح الدين على الموت، بل كان من الذين غسلوه وكفنوه وسار على رأس المشيعين بجنازته بعد الموت[2].

2 - تعيين ابن أبي عصرون على القضاء:

عندما شعر كمال الدين الشهرزوري بدنو أجله قوّض القضاء في بلاد الشام إلى ابن أخيه، أبي الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الملقب ضياء الدين ولم يسع صلاح الدين سوى الموافقة على هذا التفويض لأن ضياء الدين أهل للقضاء ليس إلاّ، ولأن القضاء من الرتب العليا التي لا ينفع فيها توريث [3] وقد كانت لكمال الدين الشهرزوري جهود في تهيئة الأمور بدمشق لاستقبال صلاح الدين لأنه اعتقد أنه أكفأ من باقي الأمراء لمنازلة العدو الصليبي وهذا العمل من الأعمال المجيدة التي تحسب لكمال الدين الشهرزوري، حيث وضع المصلحة العامة للمسلمين فوق كل اعتبار وفضّل صلاح الدين على باقي مجموع الأمراء في بلاد الشام الذين أمضوا الصلح مع العدو الصليبي [4] وسيأتي بيان ذلك مفصلاً في حينه بإذن الله تعالى.

إلا أن صلاح الدين بعد وفاة كمال الدين الشهرزوري كان ميله لتعيين ابن أبي عصرون على القضاء للأسباب التالية:

1- قوة شخصية عبدالله بن أبي عصرون العلمية والأدبية، ومكانته كشيخ للمذهب الشافعي في زمنه، وقد شهد له معظم المعاصرين بهذا [5].

2- حب صلاح الدين الأيوبي لأتباع مذهب الشافعي وتقديرهم سيما وإنه كان شافعياً إلى درجة التعصب أحياناً وأنه أراد أن يوَّحد الدولة على أساس المذهب الشافعي.

3- احتضان صلاح الدين لعبد الله بن أبي عصرون عندما قدم إليه إلى دمشق لا بل

---

(1) السلوك للمقريزي نقلاً عن المدارس العصرونية ص 29.
(2) مفرج الكروب (50/2) المدارس العصرونية ص 29.
(3) المدارس العصرونية في بلاد الشام ص 31.
(4) المصدر نفسه ص 34.
(5) مفرج الكروب (50/2)، المدارس العصرونية ص 34.

تفويض قضاء مصر لـه كما روى المقريزي عام 570هـ، وتوجيه كتاب لـه يحضه على إبطال مفعول معاهدة دمشق مع الصليبيين في نفس العام [1]، لدليل على أن صلاح الدين يكن لـه الحب والتقدير ويتمنى أن يكون قاضيه، بل تعتبر الرسالة تمهيداً لاختياره في المستقبل.

4- ثم إن علاقات صلاح الدين وابن أبي عصرون كانت على درجة كبيرة من المتانة وكان ابن أبي عصرون هو الذي تولى الإشراف على تزويج صلاح الدين بالخاتون عصمة الدين بنت الأمير معين الدين أنر وزوجة السلطان نور الدين - قبل وفاته - التي كانت تقيم بقلعة دمشق عام 572هـ [2].

5- وجود شخصيات هامة في دولة صلاح الدين الأيوبي تحبذ أن يسند قضاء قضاة الشام إلى عبدالله بن أبي عصرون أمثال القاضي الفاضل الذي كانت علاقاته به متميزة، وكان ابن أبي عصرون كثيراً ما يخاطبه في مراسلاته بمجير الدين القاضي الفاضل دليلاً على احترامه وعلو شأنه [3]، وكذلك الفقيه عيسى الهكاري أحد أمراء صلاح الدين والذي تتلمذ على يدي عبد الله بن أبي عصرون والذي كان يميل إلى أستاذه ويتمنى أن يراه قاضياً لقضاة الشام [4] ولاشك في أن لهاتين الشخصيتين أثراً كبيراً في جعل صلاح الدين يميل إلى عبدالله بن أبي عصرون ويسند إليه القضاء، فالناس فيما يذهبون ويهوون مشارب ومذاهب [5].

6- خطة عبدالله بن أبي عصرون وأعوانه الذين بدأوا يذيعون أن ضياء الدين سيعزل وربما يناله المكروه فتحرّج موقف الرجل ودفعه هذا العمل إلى تفضيل السّلامة وقدم استقالته من القضاء والتي قبلت بسرعة [6]، ودون تردد مما يفسر لنا أن صلاح الدين يميل إلى عبدالله بن أبي عصرون مع أنه لا يريد الإحراج لضياء الدين وإقالته [7]، ومهما قيل فإن مجمل هذه الأسباب مجتمعة هيأت الظروف لأن يتولى شرف الدين بن أبي عصرون قضاء القضاة في جميع

(1) كتاب الروضتين (231/1)، المدارس العصرونية ص 35.
(2) كتاب الروضتين (231/1)، المدارس العصرونية ص 35.
(3) كتاب الروضتين (231/1)، المدارس العصرونية ص 35.
(4) وفيات الأعيان (163/3)، المدارس العصرونية ص 36.
(5) المدارس العصرونية ص 36.
(6) المدارس العصرونية ص 37.
(7) مفرج الكروب (50/2)، المدارس العصرونية ص 37.

ممالك بلاد الشام الخاضعة لصلاح الدين الأيوبي عام 573هـ [1]، وكان شرط صلاح الدين على هذا التعيين أن يكون محيى الدين أبو المعالي محمد بن زكي الدين والأوحد داود نائب كمال الدين الشهرزوري في الحكم والقضاء قاضيان يحكمان وهما عن منابته يوردان ويصدران وتوليتهما بتوقيع من السلطان نفسه [2].

3 - إنتاج ابن أبي عصرون العلمي:

كان ابن أبي عصرون شخصية متميزة لها سماتها الفريدة فقد وصفه صاحب النجوم الزاهرة بأنه كان: إماماً فاضلاً مصنفاً [3] ووصفه السبكي، صاحب طبقات الشافعية بقوله: نزيل دمشق وقاضي القضاة بها وعالمها ورئيسها [4] وقال عنه موفق الدين بن قدامة المقدسي: كان إمام أصحاب الشافعي في عصره، ونعته ابن الصلاح بأنه أفقه أهل عصره وإليه المنتهى في الفتاوى والأحكام [5] ووصفه العماد الأصفهاني بقوله: حجة الإسلام مفتي العراق والشام شيخ العلم العلامة وبفتياه توطدت للشرع الدعامة وله الفخار والفخامة، وليس في عصرنا من أتقن مذهب الشافعي عنه مثله وقد أشرق في الآفاق فضله وصنف في المذهب تصانيف مفيدة قواعدها في العلم مهيدة [6]، ومما صنفه ابن أبي عصرون؛ صفوة المذهب في نهاية المطلب وهو سبع مجلدات "الانتصار" في أربع مجلدات "المرشد" في مجلدين "الذريعة في معرفة الشريعة" مجلد "التيسير" في الخلاف في أربعة مجلدات، "مآخذ النظر" و"مختصر الفرائض" و" الإرشاد المغرب في نصرة المذهب" ولم يكمله وذهب فيما ذهب له بحلب [7]، وله مؤلفات أخرى منها "التنبيه في معرفة الأحكام" " فوائد المهذب" في مجلدين[8]. "والموافق والمخالف" [9]، و"فوائد المنذري" في مجلدين. وجمع جزءاً في جواز قضاء الأعمى [1].

---

(1) سنا البرق الشامي ص 113، المدارس العصرونية ص 38.
(2) سنا البرق الشامي نقلاً عن المدارس العصرونية ص 39.
(3) النحوم الزاهرة (109/6)، المدارس العصرونية ص 122.
(4) طبقات الشافعية (132/7)، المدارس العصرونية ص 122.
(5) المدارس العصرونية ص 122.
(6) خريدة القصر، شعراء الشام (351/2)، المدارس العصرونية ص 122.
(7) المدارس العصرونية ص 123.
(8) المصدر نفسه ص 123.
(9) المصدر نفسه ص 123.

(1).

وأضاف البغدادي في هداية العارفين (2)، فتاوى ومسلسلات في الحديث (3).

4 - إنتاج شرف الدين الأدبي:

اشتهر شرف الدين في علوم الفقه والأصول والخلاف والفتاوى والقضاء وكذلك بالجانب الأدبي، فقد كان شاعراً أديباً أورد له العماد الأصفهاني وغيره مقطوعات شعرية كثيرة تنم عن إحساس متدفق وخيال خصب واسع ونفس مجربة عركتها الحياة (4) ومن أشعاره:

كل جمع إلى الشتات يصير ::: أي صفو ما شابه تكدير
أنت في اللهو والأماني مقيم ::: والمنايا في كل وقت تسير
والذي غرّه بلوغ الأماني ::: بسراب وخُلّب مغرور
ويك يا نفسي أخلصي إن ربي ::: بالذي أحقت الصدور بصير(5)

ومن شعره:

أمستخبري عن حَنيني إليه ::: وعن زَفَراتي وفرط اشتياقي
لك الخير إنّ بقلبي إليك ::: ظماً لا يُروِّيْهِ إلا التلاقي

وقال أيضاً:

يا سائلي كيف حالي بعد فُرْقَتِهِ ::: وحاشاك ممّا بقلبي من تَنَائيكا
قد أقسم الدّمعُ لا يجفُو الجُفُون أسىً ::: والنوم لازارها حتى ألاّ قيكا(6)

هذه شخصية ابن أبي عصرون المتميزة فهي متكاملة الجوانب لها أثرها في مجال القضاء والفتيا والسياسة والإدارة، والدبلوماسية والسفارة تمتعت بقدر كافٍ من العلم والأدب أهّلها إلى أن تتسلم أرقى المناصب وأرفعها وهي قضاء القضاة والسفارة ومشيخة الشافعية في عصرها (7).

5 - حمله البشارة إلى الخلافة العباسية:

---

(1) المصدر نفسه ص 124.
(2) المصدر نفسه ص 124.
(3) المصدر نفسه ص 124.
(4) المدارس العصرونية ص 124.
(5) المصدر نفسه ص 126، النجوم الزاهرة (110/6).
(6) سير أعلام النبلاء (128/21، 129).
(7) المدارس العصرونية ص 128.

من المهام الجليلة التي قام بها القاضي شرف الدين بن أبي عصرون هي حمل البشارة إلى الخلافة العباسية سنة 567هـ/1171م، بقطع صلاح الدين الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد وإقامتها للخليفة العباسي المستضيء، بالله وكتب معه نسخة لهذه البشارة تقرأ بكل مدينة يمر بها، فسار إلى بغداد ولم يترك مدينة إلا دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر، وقرأ فيها هذا المنشور العظيم الخطر والذكر حتى وصل إلى بغداد الموكب إلى تلقيه وجميع أهل بغداد مكرمين لخطير وروده معظمين لجليل مورده، ونثرت عليه دنانير الأنعام وحبى بكل إحسان وإكرام، وأرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح الدين [1]، واستمر القاضي شرف الدين بن أبي عصرون مشاركاً في الحياة السياسية بعلمه وآرائه، وسفيراً لصلاح الدين إلى الخلافة العباسية ببغداد حتى كانت موقعة حطين سنة 583هـ/1187م. وأكد المؤرخون مشاركته لصلاح الدين في هذه الموقعة العظيمة التي فتح الله بها معظم مدن الساحل الشامي وبيت المقدس [2].

6 - عبدالله بن أبي عصرون يصاب بالعمى:

ظل شرف الدين بن أبي عصرون قاضياً يحكم بالشرع حتى عام 577هـ، حيث أصيب آنذاك بالعمى وفقد بصره فتكلم الناس في عدم أهليته للقضاء وطعنوا بها [3]، وهنا وقع صلاح الدين في حرج شديد ورطة فقهية، فهو لا يريد أن يمس مشاعر صاحبه الذي فقد بصره ويعزله عن منصب القضاء وهو في نفس الوقت يتعرض لأقوال الفقهاء التي تطعن في بقاء ابن أبي عصرون في منصبه لعدم أهليته وقد تصدى شرف الدين بن أبي عصرون لهذه المشكلة بنفسه وأصدر كتاباً في جواز قضاء الأعمى مخالفاً في هذا مجموع الفقهاء، وكان سند ابن أبي عصرون فيما ذهب إليه من جواز قضاء الأعمى وجه ورد في جمع الجوامع للروياني اختاره شرف الدين بن أبي عصرون وصنف فيه جزءاً في جواز قضاء الأعمى وظل هو قاضياً لما أصيب بالعمى، وكانت حجة الجمهور أن الأعمى لا يعرف الخصوم، ولا الشهود، فكيف يحسن قضاؤه فيما يعرض عليه، وحجة من جوَّز هذا أن شعيباً نبي الله كان أعمى فما دام هذا نبي مرسل فالقاضي بطريق أولى أن يكون قاضياً لأن النبي أشرف من القاضي لتفضيل الله له على غيره، وقيل أن شعيباً لم يثبت عماه، فلو سلمنا بعمى شعيب فإن الذين آمنوا به كانوا قلة فربما إنهم لم يحتاجوا إلى من يحكم بينهم، ولو فرضنا إنهم احتاجوا فإن الوحي

---

(1) السلوك (64/1، 65).
(2) دور الفقهاء والعلماء في الشرق الأدنى ص 135.
(3) وفيات الأعيان (54/3) المدارس العصرونية ص 39.

ينزل على النبي شعيب يزوده بالحكم الفاصل ولا يتسنى هذا للقاضي إذ لا وحي ينزل عليه [1].

وأمام هذه المشكلة التي يقف فيها شرف الدين بن أبي عصرون لوحده في جانب وجميع الفقهاء في الجانب الآخر بالشام، انتابت صلاح الدين الحيرة فماذا عساه صانع؟ فالتفت صلاح الدين إلى القاضي الفاضل وكان في مصر آنذاك فأرسل إليه يستعين به على حل هذه المشكلة بأنه يتوجب عليه أن يتصل بالشيخ أبي طاهر بن عوف الإسكندري ويسأله عما ورد من الأحاديث في قضاء الأعمى [2]، علّه يجد له حلاً لما استعصى عليه، ثم لم تلبث أن وردت إجابات القاضي الفاضل إلى صلاح الدين الأيوبي وجاء فيها: لن يخلو الأمر عن قسمين، والله يختار للمولى خيرة الأقسام ولاينسى له هذا التخريج الذي لا يبلغه ملك من ملوك الإسلام: إما إبقاء الأمر باسم الوالد بحيث يبقى رأيه ومشورته وفتياه وبركته ويتولى ولده النيابة ويشترط عليه المجازاة لأول زلة وترك الإقالة لأقل عثرة، فطالما بعث حب المناقشة الراجحة على اكتساب الأخلاق الصالحة، وإما أن يفوض الأمر إلى الإمام قطب الدين فهو بقية المشايخ وصدر الأصحاب ولا يجوز أن يتقدم عليه في بلد إلا من هو أرفع طبقة في العلم منه [3].

وفي هذا الجواب وجد صلاح الدين المخرج بلا حرج فأبقى شرف الدين على رأس القضاء وفّوض الأمر إلى والده محيى الدين أبي حامد محمد بن شرف الدين على أن يكون والده هو الحاكم الحقيقي، ويظهر للناس على أنه نائب عن أبيه بحيث لا يظهر للناس صرفه عن القضاء، وهكذا بقي شرف الدين بن أبي عصرون يمارس قضاء القضاة في بلاد الشام وولده نائب عنه، بفضل دفاعه عن نفسه والغوص في أعماق الفقه واستخلاص ما يجيز قضاء الأعمى، ثم تضامن صلاح الدين معه ومساندة صاحبه القاضي الفاضل له بالحق [4].

7 - وفاة ابن أبي عصرون:

توفي القاضي ابن أبي عصرون في حادي عشر رمضان سنة خمس وثمانين وخمس مئة [5] ولما بلغ الخبر القاضي الفاضل بمصر كتب رسالة بهذه المناسبة يعَزي

(1) مفرج الكروب (51/2)، نكت الهيمان ص 60.
(2) وفيات الأعيان (54/3)، المدارس العصرونية ص 41.
(3) مفرج الكروب (67/2، 68)، المدارس العصرونية ص 41.
(4) المدارس العصرونية ص 41.
(5) سير أعلام النبلاء (129/21).

بشرف الدين ويرد على الرسالة التي وردته بالخبر من الشام: وصل كتاب الذات الكريمة جمع الله شملها وسر بها أهلها ويسر إلى الخيرات سبلها وجعل في ابتغاء رضوانه قولها وفعلها، وفيه زيادة هي نقص الإسلام وثلم في البرية يتجاوز رتبة الانثلام إلى الانهدام وذلك ما قضاه الله تعالى وقدره من وفاة الإمام شرف الدين بن أبي عصرون رحمه الله تعالى، وما حصل بموته من نقص الأرض من أطرافها ومن مساءة أهل الملة ومسرة أهل خلافهما فلقد كان علما للعلم منصوباً وبقية من بقايا السلف الصالح محسوباً، والعلم بالشام زرعه وكل من انتفع فعليه كان واليه ينسب نفعه رضي الله عنه وأرضاه ونفع بماء الرحمة مثواه، وما مات من أبقى تلك التصانيف التي هي المعنى المغني بل ما مات من ولده المحيي فإنه والله لآثاره ولعلمه والحضرة تنوب عني في تعزيته والقيام بحق تسليته وقد ساءتني الغيبة عن مشهده، وتغيير القيام وراء سريره والتوسل إلى الله في ساعة مقدمه ولقد علم الله اغتمامي لفقد حضرته واستيحاشي لخلو الدنيا من بركته واهتمامي بما عدمت من النصيب الموفر كان من أدعيته. وما مات بحمد الله حتى أحرز غيبته بأولاد كرام بررة وأنشأ طلبة للعلم نقله وللمدارس عمره وحتى بنى لله المدارس والمساجد وأحيا نهاره وليله بين راكع وساجد فهو حي لمجده وإنما نحن الموتى بفقده [1] وتعذر عليه.

خامساً: الفقيه عيسى الهكاري:

هو الفقيه ضياء الدين أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى الهكاري، أحد أمراء الدولة الصلاحية معولاً عليه في الآراء والمشورات، وقام بتدريس الفقه في المدرسة الزجاجية بمدينة حلب، واتصل بالأمير أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين وصار إمامه يصلي به الفرائض الخمس، ولما توجه أسد الدين إلى الديار المصرية، وتولى الوزارة كان عيسى في صحبته، وكان صلاح الدين يستشيره ويتبع نصحه، وكان كثير الإدلال عليه يخاطبه بما لا يقدر عليه غيره من الكلام وكان واسطة بين صلاح الدين والناس بما ينفعهم [2].

إسناده لصلاح الدين في وزارته:

- بعد أن تولى صلاح الدين الوزارة بتقليد من الخليفة العاضد، اعترض بعض الأمراء النورية الذين طمعوا في الوزارة لأنفسهم على هذا الوضع ورفضوا طاعة

(1) المدارس العصرونية ص 192.
(2) وفيات الأعين (497/3)، طبقات الشافعية (255/7).

صلاح الدين وخدمته [1]، وكادت تحدث فتنة بين قوات نور الدين في مصر لولا الدور الذي قام به الفقيه عيسى الهكاري - وهو من الأكراد - فقد أخذ يسعى جاهداً بين هؤلاء الأمراء إلى أن جمعهم حوله بأنواع من الترغيب والترهيب، إلا أن عين الدولة الياروقي فضل العودة إلى الشام لخدمة نور الدين محمود على أن يظل تابعاً لصلاح الدين [2].

وهكذا يتضح الدور العظيم الذي قام به الفقيه عيسى الهكاري في دعم صلاح الدين في وزارته، فقد استطاع بقوة شخصيته وذكائه أن يوطد الأمور لصلاح الدين في بداية توليه حتى يتيح له الفرصة للتفرغ لما هو أهم من هذه الصراعات، ونعني بذلك الجهاد الأعظم ضد الصليبيين[3].

إصلاح الموقف بين صلاح الدين ونور الدين:

- كان الفضل للشيخ عيسى الهكاري في إصلاح الموقف بين صلاح الدين والسلطان نور الدين محمود عندما اعتذر صلاح الدين عن الزحف إلى حصن الكرك، كما طلب نور الدين الذي قبل وساطة الهكاري وحمّله رسالة إلى صلاح الدين مفادها أن حفظ مصر أهم عندنا من غيره [4]. وكان صلاح الدين يعتمد عليه في كثير من الأمور حتى أصبح الفقيه عيسى واحداً من كبار الأمراء الصلاحية، وكان صلاح الدين يحترم علمه وعقله وآراءه، ويستشيره كثيراً في أمور الحكم ولم يكن يخرج عن رأيه [5].

مساهمته في الصلح مع أهل الموصل:

- وتتوالى الأحداث والمواقف بعد ذلك لتؤكد أهمية ومكانة هذا الفقيه في دولة صلاح الدين الأيوبي، وذلك يتضح عندما أراد صلاح الدين في عام 578هـ/1182م أن يحاصر الموصل ويستعيدها من صاحبها الأتابك عز الدين مسعود ويضمها إلى الجبهة الإسلامية ويضمن وقوفها معه ضد الصليبيين في معركته الفاصلة معهم، ولكن بعد مناوشات عديدة بين الطرفين تدخل الخليفة العباسي في الأمر وأرسل صدر الدين شيخ الشيوخ مندوباً عنه للتوسط في الصلح بين الطرفين [6]، فأرسل صدر الدين إلى صلاح

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 123.
(2) الباهر ص 142.
(3) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 124.
(4) دور العلماء في إصلاح المجتمع زمن الحروب الصليبية ص 62.
(5) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 124.
(6) كتاب الروضتين نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء ص 126.

الدين يطلب منه إنفاذ بعض ثقاته لحضور مباحثات الصلح بين الطرفين، فتقدم السلطان إلى الأجل القاضي الفاضل، وإلى الفقيه عيسى أن يحضرا وأن ينهيا إليه ما يسمعانه منه، فمضيا وحضر عند شيخ الشيوخ، وقام كل من القاضي الفاضل والفقيه عيسى بالتباحث في الأمر نيابة عن صلاح الدين حتى استقر الصلح بين الطرفين، ورحل صلاح الدين عن الموصل وحقنت بذلك دماء المسلمين [1].

التفاوض مع وزير خلاط:

- قام الفقيه عيسى الهكاري في سنة 581هـ/1185م بمهمة دبلوماسية أخرى أوفده بها السلطان صلاح الدين الأيوبي للتفاوض مع وزير خلاط كنائب عنه؛ لأنه بعد وفاة شاة أرمن سكمان صاحب خلاط تولى مملوكه سيف الدين بكتمر البلاد، فسار نحوه البهلوان أتابك شمس الدين محمد بن إيلدكز صاحب العجم لأخذ خلاط منه، وطمع وزير خلاط أيضاً في الاستيلاء عليها وهو مجد الدين بن الموفق بن رشيق الذي أرسل إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي طالباً منه التدخل لحسم تلك الأطماع فبعث السلطان الفقيه عيسى الهكاري في هذه المهمة الدبلوماسية ليمهد الطريق ويناقش الأطراف، وتحدث وزير خلاط مع الفقيه عيسى طالباً استعجال السلطان في الوصول قبل وصول البهلوان، وكان السلطان بالفعل قد غادر الموصل في طريقه إلى خلاط، ولما علم البهلوان بتلك التطورات وذلك الموقف الحاسم الذي وقفه الفقيه عيسى في مساندة وزير خلاط، ورسالته العاجلة إلى السلطان، ودخل البهلوان الخوف وطلب الصلح مع وزير خلاط والعودة إلى بلاده فتم الصلح انقضى الخلاف، وذلك بحكمة الفقيه عيسى الهكاري الذي نجح في هذه المهمة وفتح أبواب الاستعطاف والاستمالة بين الفئتين[2].

رجل المهمات الخاصة:

- في سنة 582هـ/1186م قام السلطان صلاح الدين بعدة تعديلات في مصر والشام خاصة بنوابه في البلاد لرغبته في الاطمئنان على مستقبل البلاد بعد وفاته من ناحية، وعدم حدوث خلاف بين أبنائه، بالإضافة إلى تدريبهم على سياسة الملك في حياته وصيانة البلاد من الانشقاق من ناحية أخرى، لاسيما وأنه كان يعد نفسه للدخول في معركة فاصلة من معارك جهاده ضد الصليبيين، فلما وصلته الأخبار بأن ابن أخيه تقي الدين عمر - نائبه في مصر مع ولده الملك الأفضل - قد صدرت عنه تصرفات

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 127.
(2) مفرج الكروب (2/168، 169).

أثناء مرض صلاح الدين بحران تدل على رغبته في الاستبداد بالحكم في مصر، أرسل الفقيه عيسى الهكاري وكان كبير القدر عنده مطاعاً في الجند إلى مصر، وأمره بإخراج تقي الدين منها والمقام بمصر [1]، فأسرع الفقيه عيسى بتلبية الأمر وتوجه إلى مصر ونفذ ما أمر به وظل بها حتى يصل العادل أخو صلاح الدين إليها وبصحبته ولده العزيز عثمان بن صلاح الدين، وهذا يدل على الثقة الكبيرة التي أولاها صلاح الدين للفقيه عيسى الهكاري واطمئنانه إليه خاصة وأنه يعلم مدى تأثير الهكاري في جند مصر [2].

شجاعته في الحروب ضد الصليبيين:

- بعد أن استتب الأمر لصلاح الدين وبدأ جهاده في جبهة الشام يشاركه الكثير من المتطوعين من الفقهاء والعلماء، وفي مقدمتهم الفقيه عيسى الهكاري الذي يشاركه في جهاده ضد الصليبيين مشاركة فعلية وحمل السلاح وقاتل في المعارك مجاهداً في سبيل الله، وكان يلبس زي الأجناد بعمائم الفقهاء فيجمع بين اللباسين [3]، وقد أثبتت المصادر الإسلامية هذه المشاركة الفعلية التي قام بها هذا الفقيه في الجهاد، فعندما خرج مع صلاح الدين في سنة 573هـ/1177م لمحاربة الصليبيين في عسقلان، قام بالإغارة عليها فقتل الكثير من الصليبيين وأسر الكثير وأحرق ما حولها، ثم واصل صلاح الدين بمن معه إلى الرملة فسبى وغنم ولكن لما تشاغل الجيش بالغنائم وتفرقوا في القرى والمناطق التي حولها وبقي صلاح الدين في طائفة قليلة من جنده، قام الصليبيون فجأة بالهجوم عليهم فارتبك المسلمون وأخذوا يقاتلون الصليبيين ولكن حلت بهم الهزيمة وقتل منهم أعداداً كثيرة وأسر الكثير منهم وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري وأخيه ظهير الدين ممن وقعوا في الأسر.

ويذكر ابن الأثير في هذا المجال أن الفقيه عيسى الهكاري كان أشد الناس قتالاً ذلك اليوم[4]، ومما يدل على المكانة العظيمة التي كانت للفقيه عيسى الهكاري عند صلاح الدين الأيوبي، هو ما ذكره المؤرخون من أن صلاح الدين افتداه من الأسر بعد سنتين بمبلغ ستين ألف دينار [5]، ويضيف المؤرخون بأن صلاح الدين لم يقتصر في فك أسر

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين ص 128.
(2) المصدر نفسه ص 129.
(3) وفيات الأعيان (498/3).
(4) مفرج الكروب (59/2، 60).
(5) كتاب الروضتين نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء ص 125.

الفقيه الهكاري على فدائه بالأموال فقط، بل أطلق كثيراً من أفراد جماعة الداوية [1]، ممن كانوا عنده في الأسر، وهذا يدل على عظم وقدر الفقيه الهكاري لدى صلاح الدين الأيوبي [2]. هذا وقد توفي الفقيه عيسى سنة 585هـ [3].

سادساً: زين الدين علي بن نجا:

ومن المواقف الجديرة بالذكر التي قام بها بعض الفقهاء والعلماء في بداية قيام الدولة الأيوبية ما بدر منهم من حرص شديد سنة 569هـ/1174م على سلامة وأمن الدولة وعدم تفككها حتى لا يطمع فيها أعداء الإسلام والمسلمين، وكان ذلك عندما قامت جماعة من الشيعة في مصر بمؤامرة تهدف إلى إعادة الخلافة الفاطمية بمصر بعد أن أسقطها صلاح الدين سنة 567هـ/1171م، وكانت خطتهم في ذلك أن يستدعوا الصليبيين من صقلية وبلاد الشام إلى مصر لمساعدتهم مقابل أن يمنحوهم شيئاً من المال والبلاد وكانت خطتهم أنه في الوقت الذي تصل فيه القوات الصليبية ويخرج صلاح الدين بقواته للقائهم يقوم المتآمرون بإشعال نيران الثورة في الداخل فيقع السلطان بين نارين نار ثورة بالداخل ونار وجود الصليبيين خارج البلاد الأمر الذي يعمل على تشتيت قواته ويساعد على هزيمته أمام الصليبيين من ناحية وسيطرة المتآمرين على مقاليد الحكم من ناحية أخرى وكان على رأس هؤلاء المتآمرين من الشيعة الفقيه الشاعر عمارة بن أبي الحسن اليمني [4]، وعبد الصمد الكاتب والقاضي هبة الله بن عبدالله العويرس، وغيرهم من جند المصريين ورجالاتهم السودان وحاشية القصر ومعهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده [5] ولا شك أن هذا المخطط خيانة صريحة من قبل جماعة من الشيعة الذين استعانوا بالصليبيين لقتال المسلمين من أجل تحقيق المصالح الشخصية، ومن أجل تحطيم دولة صلاح الدين الإسلامية السنية التي تجاهد ضد أعداء الدين، بل لقد بلغت هذه الخيانة حداً كبيراً لدرجة أنهم يغرون الصليبيين بالأموال للقدوم إلى مصر بدلاً من صدهم ومحاربتهم [6].

وقد أراد الله أن يكشف خيوط المؤامرة على يد أحد رجال الدين من الفقهاء

---

(1) جماعة دينية مسيحية حربية وهم من أصل فرنسي.
(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين ص 125.
(3) وفيات الأعيان (497/3).
(4) وفيات الأعيان (431/3 - 436).
(5) مفرج الكروب (243/1، 244).
(6) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 130.

المخلصين الواعين والمقدرين للمصلحة الإسلامية الغيورين على تماسك وحدة الجبهة الإسلامية وهو زين الدين علي.

ويذكر ابن الأثير: وكان من لطف الله بالمسلمين أن الجماعة المصرية أدخلوا معهم زين الدين علي بن نجا، الواعظ والقاضي المعروف بابن نجية [1]، ورتبوا الخليفة والوزير والداعي والقضاة [2]، فلما ضموا إليهم القاضي ابن نجا وشعر بخطورة ما يدعون إليه، قام بإخبار صلاح الدين بكل تفاصيل المؤامرة فطلب منه أن يظهر تعاطفه معهم وتواطئه على مايريدون فعله، وإخباره بما يتجدد من أخبار، ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه [3].

وبناء على ذلك استطاع صلاح الدين الوقوف على تفاصيل المؤامرة، وفي تلك الأثناء وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل بهدية ورسالة وهو في الظاهر إليه - أي صلاح الدين - والباطن إلى أولئك الجماعة وكان يرسل إليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم، فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال، فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق إليه من النصارى، وداخله فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته [4]. وعندئذ تأكد صلاح الدين من حقيقة الأخبار التي وصلته من القاضي ابن نجا وتدارك الأمر قبل وقوع الكارثة، فأمر بالقبض على هؤلاء المتآمرين جميعاً وقضى عليهم وسكنت الفتنة [5]. ثم قرب السلطان إليه زين الدين علي بن نجا وأحسن إليه بالأعطيات والإقطاعات، وأجمل وأعطاه وأجزل، وأتم له مراده وأكمل وكان السلطان يستشيره ويروفه تدبيره ويميل إليه لقديم معرفته وكريم سجيته [6].

وكان صلاح الدين يسمي ابن نجا عمرو بن العاص ويعمل برأيه لسداد رأيه وسعة حيلته، وأن كثيراً من أرباب الدولة وأهل السنة في مصر كانوا لا يخرجون عما يراه لهم زين الدين بن نجا وأن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين قال له: إذا رأيت مصلحة في شيء فاكتب إليّ بها، فأنا ما أعمل إلا برأيك[7]، ويذكر سبط بن الجوزي أن ابن نجا نشط في الوعظ والتحديث وأن صلاح الدين وأولاده كان يحضرون مجلسه

(1) وفيات الأعيان (530/2).
(2) السلوك (74/1، 75) دور الفقهاء والعلماء ص 130
(3) مفرج الكروب (244/1، 245).
(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء ص 131.
(5) كتاب الروضتين (219/1 - 224).
(6) دور الفقهاء والعلماء ص 131.
(7) الطبقات لابن رجب (437/1، 438).

ويسمعون مواعظه، وكان لـه الجاه العظيم والحرمة الزائدة[1]، وعندما خرج صلاح الدين لمحاربة الصليبيين في بلاد الشام كان يكاتب زين الدين بن نجا بوقائعه [2]، من ذلك أنه عندما فتح قلعة حمص عام 570هـ - 1174م كتب إليه يصف القلعة برسالة مطوّلة [3]. وعندما قرّر رأي صلاح الدين على الاستقرار في بلاد الشام كتب لـه ابن نجا عام 580هـ/1184م كتاباً يشوّقه إلى مصر ونيلها وخيراتها ومساجدها ومشاهدها، ثم ذكر فضيلة مصر واستدل عليه بالآيات والأخبار والآداب والآثار، فردّ عليه صلاح الدين في رسالة - أوردها كل من سبط ابن الجوزي وأبو شامة - يخبره بأن سكن الشام أفضل ومناخها أجود وأن الله أقسم بها في القرآن، ويعاتبه على عدم حنينه إلى وطنه دمشق ويدعوه للانتقال إليها إلى أن ختمها بقوله: وزين الدين وفقه الله قد تعرض للشام فلم يرض أن يكون المساوي حتى شرع في ذكر المساوي، ولعله يرجع إلى الحق ويعيد سعد أسعاده ورفاقه إلى الوفق إن شاء الله [4]. ومهما يكن الأمر، فقد استمر ابن نجا يعمل مع صلاح الدين حتى دخل معه بيت المقدس فاتحاً وألقى في المسجد الأقصى أول مجلس [5] للوعظ كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى وقد توفي أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجا الحنبلي الملقب بزين الدين عام 599هـ [6].

سابعاً: العماد الأصفهاني:

القاضي الإمام، العلامة المفتي، المنشئ، والوزير، عماد الدين، أبو عبد الله محمد بن حامد بن محمد بن عبدالله بن علي بن محمود بن هبة الأصبهاني الكاتب يعرف بابن أخي العزيز، قدم بغداد، فنزل بالنظامية، وبرع في الفقه على أبي منصور سعيد بن الرَّزاز وأتقن العربية والخلاف، وساد في علم الترسل، وصنف التصانيف واشتهر ذكره [7]، واتَّصل بابن هبيرة، ثم تحَّول إلى دمشق سنة اثنتين وستّين، واتَّصل بالدولة، وخدم بالإنشاء الملك نور الدّين، وكان ينُشئُ بالفارسي أيضاً فنَفذه نور الدين رسولا إلى المستنجد، وولاه تدريس العمادية سنة سبع وستين، ثم رتبَّه في إشراف الديوان، فلما توفي نور الدين أُهمِل، فقصد الموصل، ومرض، ثم عاد إلى حلب، وصلاح الدين

(1) مرآة الزمان نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 282.
(2) كتاب الروضتين نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 283.
(3) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 283.
(4) كتاب الروضتين نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 284.
(5) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 284
(6) وفيات الأعيان (530/2).
(7) سير أعلام النبلاء (345/21).

محاصر لها سنة سبعين، فمدحه، ولزم ركابه، فاستكتبه، وقرَّبه، فكان القاضي الفاضل ينقطع بمصر لمهمَّات فيسدُّ العماد في الخدمة مَسَدَّة [1]، وصار العماد معاون القاضي الفاضل في كل الأمور واستعاد مقامه القديم وصار كاتب سر صلاح الدين [2]، واستكتبه صلاح الدين ووثق به وقرّبه إليه وصار من خاصته يصرف الأمور ويقسم الأموال التي سلمها إليه السلطان ويوقع على ما يوقع عليه دون مراجعة ويقضي حاجات من يلجأ إليه من الناس ويزاحم الوزراء وأعيان الدولة وإن لم يصل إلى نفس المكانة العالية التي كانت للفاضل في نفس صلاح الدين وقد لزم العماد صلاح الدين بعد هذا أكثر من القاضي الفاضل الذي كان يتخلف عن السلطان كثيراً ويقيم في القاهرة ودمشق ليشتغل بالأعمال السلطانية... وأنشأ في عهد صلاح الدين الرسائل والمناشير والتبشيرات الكثيرة ودخل مجالس المشورة [3].

ولما مات السلطان صلاح الدين سنة 589هـ أفل نجم العماد فاختلت أحواله وساءت أموره ولم يعامله أولاد صلاح الدين معاملة أبيهم له وأقصوه عن مركزه وفي ذلك يقول العماد في مقدمة البرق الشامي: ولما نقله الله الكريم إلى جناب جنانه اقتسم أولاده ممالكه، وقلت: سلكوا مسالكه ونسكوا مناسكه وإنهم يعرفون مقداري، ويرفعون مناري ويشرحون صدري ولا يضعون قدري، فأخلف الظن حتى قطعوا رسومي ومنعوا مرسومي، وغوروا منابعي وكدّروا مشارعي [4] وبعد موت صلاح الدين لا يذكر المؤلفون الذين ترجموا للعماد شيئاً من أخباره فيقول ياقوت: إنه لزم بيته وأقبل على التصنيف والإفادة [5]، كما يذكر ابن خلكان أنه لزم بيته وأقبل على الاشتغال والتصانيف [6].

ويبدو أن العماد عاد بعد هذه الفترة إلى الدرس والتأليف ويتضح ذلك من رسالة بعث له بها القاضي الفاضل من مصر سنة 595هـ يشكو فيها حياة العزلة في مصر ويعد مقدرة العماد على الانكباب على الدرس والتأليف نعمة يتعين شكرها فيقول: وأنا على ما يعلمه المولى من العزلة إلا إنها بلا سكون وفي الزاوية المسنونة لأهل العافية في الزمان المجنون، ونحن على انتظار البرق الشامي أن يمطر وحاشا ذمة الوعد به أن

(1) المصدر نفسه (346/21).
(2) العماد الأصفهاني، د. حسين عاصي ص 21.
(3) المصدر نفسه ص 21، 22.
(4) سنا البرق الشامي ص 52، العماد الأصفهاني، للعاصي ص 24.
(5) إرشاد الأديب (85/7).
(6) وفيات الأعيان (152/5).

تخفر واشتغال سيدنا في هذا الوقت بالدرس والتدريس والتصوير والتكييف، والتصانيف التي تصرف فيها بالبلاغة أحسن التصاريف نعمة يتعين شكرها على العلماء، ويختص باللذة بها سادتهم من الفقهاء [1] ومما قاله من شعر:

وللنـــاس بالملـــك الناصـــر الصّـــلاح ::: صـــــلاح ونصـــــر كـــــبير
هـــو الشـــمسُ وأفلاكُـــهُ في الـــبلاد ::: ومطلُعُـــــه سَـــــرْجُهُ والســـــرير
ذا مـــا سَـــطَا أو حبـــا واحـــتبى ::: فما الليث؟ من حـاتم؟ مـا ثَبِيْـر [2]؟

وارتحل في موكب فقال في القاضي الفاضل:

أمَّـــــا الغُـــــارُ فإنَّـــــه ::: مِمَّـــــا أَثَارَتـــــه السَّـــــنَابك
فـــــالجوُّ منـــــه مُظلِـــــمٌ ::: لكـــــن تباشـــــير السَّـــــنابك
يـــــا دهـــــرُ لي عبـــــدالرحيم ::: فلســـتُ أخشـــى مَـــسَّ نابـــك[3]

وقد توفي العماد في الإثنين مستهل شهر رمضان سنة 597هـ/5 حزيران 1121، ودفن في مقابر الصوفية خارج باب النصر [4].

ثامناً: الخَبُوشاني:

الفقيه الكبير، الزاهد، نجم الدين أبو البركات محمد بن موفَّق بن سعيد الخُبُوشاني، الشافعي الصوفي، تفقه على محمد بن يحيي وبرع [5]، وكان يستحضر كتابه المحيط وهو ستة عشر مجلداً، وأصله من نيسابور وكان السلطان صلاح الدين يُقرِّبُهُ ويعتقد فيه وقد اشتهر بالفضل والديانة وسلامة الباطن، وكان متقشفاً في العيش، صلباً في الدين وكان يقول - قبل نزوله إلى مصر - أصعد إلى مصر، وأزيل ملك بني عُبيد اليهودي، فنزل بالقاهرة، وصرّح بثلب أهل القصر، وجعل سَبَّهم تسبيَحهُ، فحاروا فيه فنفذوا إليه بمال عظيم، قيل: أربعة الآدف دينار، فقال للرسول: ويلك ما هذه البدعة؟ فأعجله، فرمى الذَّهب بين يديه، فضربه وصارت عمامته حِلَقاً وأنزله من السلم [6].

وعندما نزل مصر عام خمس وستين وخمسمائة، نزل ببعض مساجدها، فأتفق أن الخليفة العاضد لدين الله رأى في منامه أنه بمدينة مصر وقد خرج إليه عقرب من مسجد

---

(1) كتاب الروضتين نقلاً عن العماد الأصفهاني ص 26.
(2) سير أعلام النبلاء (249/21).
(3) سير أعلام النبلاء (350/21).
(4) العماد الأصفهاني ص 27.
(5) سير أعلام النبلاء (204/21).
(6) طبقات السبكي (15/7) سير أعلام النبلاء (205/21).

معروف بها فلدغه، فانتبه مذعوراً، واستدعى عابر الرؤيا وقصّ عليه ما رأى، فقال ينال أمير المؤمنين مكروه من شخص مقيم بهذا المسجد فألزم الوالي بإحضار من في المسجد، فمضى إليه وأحضر منه رجلاً صوفياً: فسأله العاضد من أين هو، ومتى قدم مصر وفي أي شيء جاء، فأجابه عن ذلك، ولم يظهر للعاضد ما يريبه، بل تبيّن منه ضعف الحال مع الصدق، فدفع إليه مالاً. وقال له: يا شيخ ادع لنا، وخلاّه لسبيله فعاد إلى مسجده ولم يزل به حتّى قدم شيركوه من دمشق، وقام في وزارة العاضد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وشرع في إزالة الدولة، فاستفتى فقهاء مصر، فكان أشَّدهم مبالغة في الفُتيا، وعدّد مساوئ القوم، وسلب عنهم الإيمان، وأطال القول في الحطّ عليهم [1].

وكان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، فقد جاءه حاجب نائب مصر المظفر الدين عمر، وقال له: تقُّي الدين يُسلّمُ عليك. فقال الخبُوشاني قل: بل شَقِيُّ الدين لا سَلمَّ الله عليه. قال: إنه يعتذر، ويقول: ليس له موضعٌ لبيع المِزْرِ [2]. قال: يكذب. قال: إن كان ثّم مكان، فأرناه قال: ادنُ. فدنا، فأمسك بشعره، وجعل يلطم على رأسه ويقول: لستُ مزّاراً، فأعرف مواضع المِزْر، فخلصَّوه منه[3]. وعاش عمره لم يأخذ درهماً لمِلكِ ولا من وقفٍ ودفن في الكساء الذي صحبه من بلده، وكان يأكل من تاخر صَحِبَهُ من بلده [4]. هذا وقد مات الخَبُوشانيُّ في ذي القعد سنة سبع وثمانين وخمس مئة [5].

فهذه التراجم لسير بعض العلماء في عهد صلاح الدين وكانت مكانة هؤلاء العلماء والفقهاء عند صلاح الدين بالغة الرفعة ونالوا حظاً وافراً عنده، فكان مجلسه حافلاً بأهل العلم والفضل، ويذكر العماد في هذا الشأن أنه كان يؤثر سماع الحديث بالأسانيد، وتكلم العلماء عنده بالعلم الشرعي المفيد، وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة في القضاء أعلم منهم بالأحكام الشرعية والأسباب المرضية والأدلة المرعية [6].

كما يذكر ابن شداد عنه: ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير، فإن كان ممن يحضره عنده استحضره وسمع عليه، فأسمع من يحضره في ذلك المكان من

---

(1) الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (427/25، 428).
(2) المزر: بكسر الميم: نبيذ يتخذ من الذرة، وقيل من الشعير أو الحنطة.
(3) سير أعلام النبلاء (207/21).
(4) المصدر نفسه (207/21).
(5) المصدر نفسه (207/21).
(6) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 138.

أولاده، ومماليكه المختصين به... وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم، يسعى إليه، وسمع عليه [1]، وقد كانت علاقة صلاح الدين بالإمام قطب الدين النيسابوري علاقة وطيدة، لأنه كان دائم المناقشة والبحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء فيما يحتاج إلى تفهمه [2].

وخلاصة القول أن العلماء والفقهاء كانوا يحتلون مكانة عظيمة وحظوة كبيرة عند صلاح الدين ونالوا منه كل عطف ورعاية واحترام وتقدير من الناحيتين المادية والمعنوية، وكانت آراؤهم موضع اعتبار وتقدير من هؤلاء الملوك، واستشارتهم واجبة في كل الأمور الشرعية التي تمس كل نواحي الحياة في الدولة، بل أصبح لهؤلاء العلماء والفقهاء السيطرة الروحية على أذهان الناس وبلغت مكانتهم حداً كبيراً من الرفعة لدرجة أنهم أثروا تأثيراً بالغاً في الشعوب والحكومات، ولا أدل على ذلك من أن الحكومات قد أسلمت زمام الدفاع والقتال لرجال العلم والفقه أمثال الفقيه عيسى الهكاري الذي أجاد وبرع في الناحيتين الدينية والحربية في عصر صلاح الدين[3].

* * * * *

(1) النوادر السلطانية ص 7 دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 138.
(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 138.
(3) المصدر نفسه ص 139.